

العلم

العلم أشرف مطلوب، وأجل مقصود، وبه يُعرف الله ﷻ، والعلم انشراح للصدر وراحة للفكر وعلو للذكر واستقامة للأمر، بالعلم يجلس الصعلوك على أسرة الملوك، وبالعلم يستشهد العلماء على وحدانيته ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ^ط وَإِذَا قِيلَ ائْشُرُوا فَأَشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ^ط وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

أول كلمة نزلت من السماء من الله ﷺ على رسوله ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] لشرف العلم وشرف المعرفة وشرف الفائدة، ولم يطلب من الرسول ﷺ أن يطلب التزود إلا من العلم ﴿فَلَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

يقول أبو إسحاق الألبيري في قصيدته الرائعة التي أولها:

تَفَتُّ فَمَا وَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًا وَتَنَحَّتْ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا

يقول فيها - يمدح العلم ويشجع ابنه على طلب العلم وأنه مثل السيف -:

هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنْدُ لَيْسَ يَنْبُو تُصِيبُ بِهِ مَضَارِبَ مَنْ أُرْدَتَا
وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لَصًا خَفِيفُ الْحِمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

لأن العلم معك في السوق وفي البيت والمكتب والطريق والسيارة والطائرة،

كما يقول الشافعي:

عِلْمِي مَعِي حَيْثُمَا يَمُمْتُ يَتَّبَعْنِي صَدْرِي وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنَ صُنْدُوقِ
إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي أَوْ كُنْتُ بِالسُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ بِالسُّوقِ

فيقول: العلم كنز لا تخالف عليه لصاً، فاللص يسرق المال وإذا سرق المال

انتهى. فانظر اليورصة الآن، التاجر يمسي في ليلة صاحب ملايين ويصبح فإذا هو فقير، لكن العالم من لا يسرق علمه، فعلمه في صدره وفي فكره.

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُ وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفْأً شَدَّدْتَا

كلما علمت وكلما خطبت ودرست زادك الله من الفتوحات وفتح لك الكنوز،
وكلما أمسكت نقص، فالعالم إذا بخل بالعلم أغلق الله عليه منافذ المعرفة.

فَبَادِرْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللَّهُ انْتَعَمْنَا

أي: بادر العلم. وخذ وتزود.

وَإِنْ أُوتِيَتْ فِيهِ طَوِيلٌ بَاعَ وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّكَ قَدْرُؤُسْتَا

أي: صرت عالماً وعندك متون وحفظ، أصبحت وجيهاً في الناس مصدرراً.

فَلَا تَأْمَنْ سُؤَالَ اللَّهِ عَنْهُمْ بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْنَا؟

إِذَا لَمْ يَفِدْكَ التَّعْلِيمُ خَيْرًا فَلَيْتَكَ لِمَ لَيْتَكَ مَا عَلِمْنَا

إن لم يكن العلم قد دلك على تقوى الله ودمعة في السحر وسجدة، والصف
الأولى ولم يجعلك حمامة مسجد وعندك مصحف تتلوه، وصاحب أخلاق مع الناس
متواضعاً وتكتم الغيظ فتكون من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وتسامح
من أخطأ في حقك، بارئاً بوالديك وصولاً لأرحامك محباً للخير، فلا حياً الله هذه
المعرفة، إذا لم يزدك العلم خيراً.

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهَمُّكَ فِي مَغَاوٍ فَلَيْتَكَ لِمَ لَيْتَكَ مَا فَهَمْنَا

هذه قصيدته في مدح العلم وأهل العلم، وفي وصيته لابنه في تقوى الله ﷻ.

ومن أجل ما أوصى به العلماء قصيدة علي بن عبد العزيز الجرجاني، التي
هي من أمتع وأجمل وأرق الشعر، بل هي في درجات شعر المتنبي وأبي تمام، وكان
هو قاضي أصبهان وكان وجيهاً وشاعراً وأديباً، وله أبيات من ضمنها:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ. وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنِ مَوْقِفِ الدُّنَى أَحْجَمًا

كان ينقبض من مجالس العامة والناس والقييل والقال.

أَشَقَى بِهِ غُرْسًا وَأَجْنِيهَ ذَلَّةً
إِذَا فَاتَبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
وَلَمْ أُنْبِزْ فِي مُهْجَةِ الْعِلْمِ مَطْلَبِي
لَأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لَأَخْدَمَا

أي: إذا لم يدلني على تقوى الله والمحافظة على الصلوات وبر الوالدين وحسن الخلق فليتنا ما ضيعنا الشباب في امتحانات وفي الحفظ وفي المذاكرة وفي التعب وفي السهر، ثم ما النتيجة؟! النتيجة يأخذ الإنسان بالعلم المال ويأكل به.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ
وَلَوْ عَظَمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعَظَمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَسُوا
مُحْيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا

وهي اثنان وعشرون بيتاً من أجمل ما قيل في هذا الباب.

وكذلك قصيدة ابن الوردي الذي يقول:

اعْتَزَلْ ذِكْرَ الْأَعْيَانِ وَالْغَزَلْ
وَقُلِ الْفُضْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلْ
ثم يقول:

فِي ارْتِدَادِ الْعِلْمِ إِرْعَامُ الْعِدَى
وَجَمَالَ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ
لَا تَقِلْ: قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ
كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى السَّرْبِ وَصَلْ

أي: لا تقل: العلم ذهب أصحابه ومات أصحابه. فمن أوصل سفيان الثوري سوف يوصلك، والذي هدى الشافعي ووقفه يوقفك، والذي فتح على أحمد بن حنبل يفتح عليك، الله حي لا يموت وخزائنه ملاءى، ونواله موجود، لكن اطلب واسأل واصدق له في العبودية ﷺ.

والعلم يميز البهيمة التي تتدرب وتتعلم عن الأخرى غيرها، حتى إنك تجد الكلب المعلم صيده حلال وأما الكلب غير المعلم فصيده حرام ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا

أَجَلٌ لَّهُمْ قُلْ أَجَلٌ لَّكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾
[المائدة: ٤]. يقول حافظ الحكمي:

وَمَيِّزَ اللَّهُ حَتَّى فِي الْبَهَائِمِ مَا مِنْهَا يُعَلِّمُ عَنِ بَاءٍ وَمَغْتَسِمِ

فالجاهل من الكلاب لا يعجل صيده ولا يؤكل ما صاده، وأما المدرب الذي علمناه فإذا صاد نأكل صيده، فانظر كيف ميز الله ﷻ بين البهائم.

فالعلماء سادة ومجالسهم إفادة ومصاحبتهم زيادة والوفود إليهم أعظم وفادة، فهم للخير قادة وللدن ذادة، ينودون عنه من ناواه إذا صدقوا في التعلم والعمل وحمل الميثاق وهو مراقبة الباري ﷻ، والطريق العظيم للتعلم على المشايخ والعلماء، لكن القراءة القراءة.

يقول عبد الرحمن بدوي: المعرفة ثلاثة أسس: القراءة، ثم القراءة، ثم القراءة. لأن المسألة ثلاثة وثلاثة في ثلاثة تسعة، فبدوي يقول: العلم والمعرفة القراءة، ثم القراءة، ثم القراءة. وإسحاق نيوتن يقول: النجاح: العمل، ثم العمل، ثم العمل. ويقول نابليون: كسب المعركة يحصل بالمال، ثم المال، ثم المال. فهذه تسعة، وهي من الفوائد التي جرت بين الناس، فالقراءة هي الطريق الواسع للمعرفة بأن تكون طالب علم، ولذلك انظر كلمة: اقرأ.

اقْرَأْ كِتَابَكَ هَذَا الْعِلْمَ تَسْمَعُهُ
مَا بَيْنَ طَلْعَتِهِ مِنْ سَابِقِ الْأَمَمِ
مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إِلَّا نُطْفَةٌ عَرِقَتْ
فِي الْيَمِّ أَوْ دَمْعَةٌ خَرَسَاءُ فِي الْقَدَمِ
أَكَاذُ أَقْتَلِعُ الْأَهَاتِ مِنْ فَرَطِي
إِذَا ذَكَرْتُكَ أَوْ أَرْتَاعُ مِنْ دَنْمِي

فالعلم منه القراءة والاستماع والتفقه وطلب العلم على المشايخ، وكلها تؤدي

إلى ذلك.

يقول أحد عشاق الكتاب: إن القراءة والذهانة والفهامة والدراسة أصل التعبد والتسهل والتزهد والرياسة والسياسة. الدنيا والدين أساسها القراءة، حتى إنك لا تجد أحداً بارزاً في مكان ما إلا لأنه تعلم شيئاً من المعرفة وعرف، يعرف كيف يتكلم ويحاور ويأخذ ويعطي ويدير الجلسة، يؤثر في الناس بأفكاره يبدع بألفاظه، ينظم أبياتاً راقية يكتب مقالاً خلاصاً، أما الجاهل الذي لا يقرأ يومه ولا نهاره فهو كتلة من اللحم؛ يومه مثل أمسه وأمسه مثل يومه، ويأتي غده مثل اليوم، فالمطلوب أن تتعلق بالعلم وتزداد منه معرفة، حتى يقول ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ».

وأوصى ﷺ بطلب العلم وحث عليه وبيّن أن أهل العلم هم أفضل الناس، وفضل العلماء كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن معلم الناس الخير الذي يتعلم ويعلم الناس تستغفر له حتى النملة في بيتها وحتى السمك في الماء وحتى الطير في الهواء.

يقول ابن عباس «لما تعلم العلم: «ذَلَّتْ طَالِباً فَعَزَزْتُ مَطْلُوباً». أي: إنني لما كنت طالباً كنت أذل. حتى إنه كان يذهب إلى الشيخ وينتظر عند الباب حتى يقوم الشيخ، ويقول: «وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ آتِي بَيُوتِ الْأَنْصَارِ لِأَطْلُبَ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ فِي الْقَيْدُولَةِ، فَأَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ نَائِماً فَلَا تُوقِظُهُ الْجَارِيَةُ فَأَبْقَى عِنْدَ الْبَابِ، وَاللَّهِ إِنَّ الرِّيحَ بِسُمُومِهَا تَلْفَحُ وَجْهِي بِالْغُبَارِ وَإِنِّي أَنْتَظِرُ حَتَّى يَقُومَ فَأَطْلُبُ الْعِلْمَ مِنْهُ». فصار ابن عباس «عالم الدنيا، فصار المرجع؛ لأنه لما تعلم و صار بحراً صار ينفذ إليه الناس يضربون إليه أكباد الإبل من العراق واليمن ومصر والشام، ومن كل أطراف الجزيرة، ويقول: كان له مجلس حديث في الحرم، فإذا صلى الفجر ذكر الله ﷻ حتى ترتفع الشمس، ثم قال: «عَلَيَّ بِأَهْلِ الْقُرْآنِ وَالتَّفْسِيرِ». فيفتيهم ويعلمهم ويدرسهم، ثم يُقدِّم الطعام من قبله، وهو يُدرِّس في الحرم، فهو قد جمع بين الإنفاق من العلم والإنفاق من الطعام «سَائِقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ مَنْ

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» [الحديد: ٢١]. ثم قال: «عَلِيٌّ بِأَهْلِ الْعُرَيْبِيَّةِ». ثم بأهل الفتيا ثم أهل السنة والحديث، ثم إذا اقترب الظهر قام، وهذا لا يكون إلا من مثل ابن عباس «لأنه طلب وحرص، وتلك هي الليلة المباركة في حياة ابن عباس».

يَا لَيْلَةَ الْجَزْلِ هَلَّا عُدَّتْ ذَانِيَةً سَقَى زَمَانِكَ هَطَّالٌ مِنَ الدِّيَمِ

لأنه في ليلة رسول الله عند ميمونة خالة ابن عباس نام عند رسول الله ﷺ فلما خرج رسول الله ﷺ قام ابن عباس «إلى القرية فقرب ماء له؛ ليتوضأ ﷺ قال: «مَنْ قَرَّبَ لِي هَذَا اللَّحْمَ، فَقَهَّهُ فِي الدِّينِ وَعَلَّمَهُ التَّوْبِيلَ». فانطلق هذا الفتح وهذا الفهم من تلك الليلة، عمره ثماني سنوات ويعلم أن رسول ﷺ إذا خرج يحتاج الماء فقرب له الماء، فرسول ﷺ لم يدع له يمال ولا بذرية ولا بدور ولا بقصور ولا بخزائن، بل قال: «اللَّهُمَّ، فَقَهَّهُ فِي الدِّينِ وَعَلَّمَهُ التَّوْبِيلَ». فالفقه في الدين علم السنن والفهم والتأويل تفسير كتاب الله ﷻ.

ولما قام في الحرم رجل حَادٌ وَعَضُوبٌ يتكلم على ابن عباس، وكان ابن عباس حليماً عالماً بحراً ذكياً مرساً داهية، أتاه الله صباحة ورجاحة وملاحة، وهو جالس بين الناس كأنه القمر ليلة أربعة عشر، فرجل مستعجل يريد أن يسأل ابن عباس، فبدأ ينتظره قليلاً فغضب ذلك الرجل فضب ابن عباس، فقال ابن عباس: «أَتَسْبِيَنِي وَفِي ثَلَاثِ خِصَالٍ؟». قال الناس: ما هي؟ قال: «وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ بِقَطْرِ بَارُضٍ إِلَّا حَمَدْتُ اللَّهَ وَلَيْسَ لِي فِيهَا نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ، وَلَا سَمِعْتُ قَاضِيًا يَعْدُلُ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا دَعَوْتُ لَهُ وَلَيْسَ لِي عِنْدَهُ قَضِيَّةٌ، وَلَا فَهَمْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَدِدْتُ لَوْ يَفْهَمُ النَّاسُ مِنْهَا مَا أَفْهَمُ». وذلك لعلمه ولعلمه ﷺ ورجاحته لنصحه فأعطاه الله ﷻ، فينيغي على من يتعلم آية أو حكمة أو حديثاً أو قصة أن يفعلها

في حياته، وإلا فما فائدة أن يسهر الإنسان مع المجلدات دون العمل بها؟! ويقول الله ﷻ عن أعدائه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. وقال عن العالم الذي ضل وانحرف عن الدين في عهد موسى ﷺ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. فهذا مثل الذي لا يستفيد من الحكمة وتضيع عليه المعرفة ولا يظهر عليه البركة بركة العلم في الصلاح وفي التقوى وفي العمل وفي إسداء الخير للناس، وإنما جئت بهذا الذكر العلم.

والمتنبي في قصيدة يقول في كافور، وهي من أجمل قصائده التي قالها:

وَلِلسَبْرِ مِنْهُ مَوْضِعٌ لَا يَنْدَالُهُ نَدِيمٌ وَلَا يُفْضِي إِلَيْهِ شَرَابُ

إلى أن يقول:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيِ سَرُجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ
وَفِي النَفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سَكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهُ وَخَطَابُ

يقول: أعز مكان في الدنيا وأشرف مكان أن تكون على ظهر الفرس؛ لأنك إذا كنت هناك كنت صاحب عزة ودافعت عن مجدك وعن دينك وعن رسالتك فهابك الناس.

وخير جليس في الزمان كتاب؛ لأن الكتاب لا يؤذيك ولا يُمَلِّك ولا يُسَمِّك ولا يغتابك ولا يذلك ولا ينم عنك ولا يثقل عليك، إن قرَّبته دنا وإن أبعدته دنا وإن كتمته سرا كتم، وإن أردت أن يضحكك أضحكك وإن أردت أن يبكيك أبكاك، وإن رجعت له بعد سنة ما عتب عليك ولا عاتبك؛ لِمَ تركتني ولمَ هَجَرْتَنِي؟ خفيف

المحمل تجعله في جيبك وتحت إبطك وتأخذه معك في السيارة، ويجمع لك العلوم والدهور والقرون والأزمان ما بين آية محكمة وحديث صحيح وقصة وخبر طريف، وبين نادرة وبين نكتة وبين موعظة، وينقل لك شجون العالم وأخبار الدنيا وأفكار المعمورة، فيجمع لك أفكار الغرب والشرق والعرب والعجم والبربر، يجمع لك التاريخ والأدب والفقه والتفسير والجغرافيا، ويُحدِّثك نظماً ونثراً، وإذا مللت وقف وسكت وإذا أظبقته هدأ مكانه، أما الجلساء فأحدهم - إلا الصالحين - يلمز، والآخر يفتاب وإذا قطعت عليه غضب وإذا سكت شاركته في الإثم، وبعضهم ثقيل يزورك الساعة الثانية عشرة ليلاً ويبقى عندك ويأكل طعامك في الله ويحبك في الله ويعانقك في الله ويشرب في الله، ويتصل بك في اليوم عشرين مرة، ويستلف مالك في الله ولا يردها في الله، وهذا كله في بعض الصداقات، فهذا الثقل كله منفي عن الكتاب، ولذلك أجمع العقلاء في العالم على أن أحسن من تجلس معه الكتاب.

وكان ابن المبارك إذا جمع الكتب حوله قال: أنا بين أصحاب رسول الله ﷺ - يقصد الأحاديث - أنتم تغتابون الناس أما هؤلاء فلا يغتابون الناس.

والأصمعي قيل له: لِمَ نراك وحدك؟ قال: أنا لست وحدي، أنا معي أصدقاء بررة وجُلّاسٌ خيرة. فينظرون فإذا الكتب بين يديه. وكان بعضهم يقول: إن الإمام أحمد كان إذا نام كانت الكتب عند رأسه عشرة أو عشرين كتاباً، وقال له رجل: أريد خراسان. قال: خذ الكتب، لا تستوحش.



oboeikendi.com

العبون في الشعر

من آخر ما قرأت بيتين للشاعر الإيراني
العالمي المشهور السعد الشيرازي، يقول فيهما:

بَكَتْ عَيْنِي خُذَاةَ الْبَيْنِ دَمْعاً
وَأُخْرَى بِالْبُكَاءِ بَخِلْتُ عَلَيْنَا

فَعَاقَبْتُ الَّتِي بِالْذَمِّ ضَنْتُ
بِأَنْ أَعْمَضْتُهَا يَوْمَ التَّقِينَا

معنى البيتين يقول: إن عيني لما فارقت
أحبابي بكت، أما الثانية فما بكت ولا شاركنا،
فلما التقينا بعد مدة فتحت هذه؛ لترى الأحباب،
أما هذه فأغمضتها؛ عقاباً لها.

وهذه تُسمى لغة العيون، ومن أحسن من تفنن فيها الشعراء عند العرب، حتى إن ابن كثير ذكر ابن الخياط في ذلك، وهو شاعر من أعظم الشعراء له ديوان كبير، قال بعضهم: أحسن ما في ديوانه قوله:

لَهَا عَيْنٌ أَصَابَتْ كُلَّ عَيْنٍ وَعَيْنٌ قَدْ أَصَابَتْهَا الْعُيُونُ

فإذا عَلِمَ هذا، فقد قال العرب في العين كثيراً، حتى إن الصِّمَّةَ القشيري قال:

بَكَتْ عَيْنِي الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أُسْبَلْنَا مَعَا

لأنه يقول:

أَلَيْسَتْ عَشِيَّاتِ الْهُوَى بِرَوَاجِعِ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِيكَ تَدْمَعَا

إلى أن يقول:

بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضُ مَا أَحْسَنَ الرُّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْأَمْصُطَافَ وَالْمُتْرِبَعَا

بَكَتْ عَيْنِي الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أُسْبَلْنَا مَعَا

يقول: لما بكت عيني اليمنى وقلت: خافي الله لا تحزني ولا تقلقي ولا تجزعي، وانظري إلى الشمال كيف صبرت واحتسبت، وبعد قليل فإذا الشمال تبكي معها. فلا سكتت هذه ولا صبرت تلك.

وعلى هذه القافية ذكر الترمذي عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها-

أنها أتت إلى الحجون تزور قبر أخيها عبد الله، فلما وقفت بكت وقالت: «وَاللَّهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكَ - يَا عَبْدَ اللَّهِ - إِلَّا كَمَا قَالَ مُتَمِّمٌ بِنُ نُؤَيْرَةَ - يرثي أخاه مالكا -:

وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَدِيمَةَ بُرْهَةَ مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ يَتَّصِدَعَا

وَعَشْنَا بِخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ وَقَبَلْنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتَبَعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

العَبُونُ فِي الشَّعْرِ

وفي بيت آخر لا يلحق بالقصيدة يقول بعضهم:

فَلَيْتَ الْمُنَايَا كُنْ خُلْفُنْ مَا لِكَأَ فَعِشْنَا جَمِيعاً أَوْ ذَهَبُنْ بِنَا مَعَا

فدل على اهتمام العرب بالبكاء وبالعيون، حتى إنني رأيت الأعرور السلمي وله ابن ضلّ منه، فبكى عليه كثيراً، فكان يقول:

بَكَيْتُ بَعِيْنٍ لَيْسَ فِيهَا غَضَاضَةٌ^(١) وَعَعِيْنٌ بِهَا رَيْبٌ مِّنَ الْحَدَدَانِ

عَذِيْرُكَ يَا عَيْنِي الصَّحِيْحَةَ بِالْبِكَا فَمَا لَكَ يَا عَوْرَاءُ وَالْهَمَلَانِ؟

يقول: أعذرك يا صحيحة، والبكا، فما بك يا عوراء؟

فكانوا يرسلون دموعهم وقت الفراق ووقت الحزن وفقد الابن ونحو ذلك، ولكن دموع المؤمنين يُثَاب عليها صاحبها إذا احتسب، وأما دموع التسخط فيني أخشى على صاحبها منها، حتى إن كثيراً من الناس كانوا يبكون بكاء الفرح؛ لأن هناك دموع فرح وهي باردة ودموع حزن وهي حارة، وفيها يقول أبو هلال العسكري: إنه بُشِّرَ بابن فبكى وبُشِّرَ بموته فبكى، قال:

يَا عَيْنُ، صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكَ عَادَةً تَبْكِيْنَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانِ

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنِّي مِّنْ عِظْمٍ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي

قالوا: إذا اشتد فرح الإنسان إلى درجة لا يملك نفسه انفجر باكياً، ولذلك ترى الأم إذا طالت غيبة ابنها ثم وفد إليها فإذا هي تبكي؛ ما استطاعت أن تعبر بالضحك، ومثلما ورد في الحديث الصحيح أن أبي بن كعب رضي الله عنه - سيد القراء أبو المنذر - أتاه رضي الله عنه وقال: «إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أقرأ عليك البينة. قال: وسماني في الملاء الأعلى؟». أي: الله قال: اقرأ على أبي بن كعب؟ وسماه

(١) أي: بعينه الصحيحة.

الله عز وجل، قال عز وجل: «سَمَّاكَ». فبكى أبي بن كعب رضي الله عنه، فبكاؤه هذا من شدة الفرح على ما بشره به سيد الخلق صلى الله عليه وسلم.

ومن هذا الباب ما ذكر عن ابن عباس «في مسألة العيون ووصفها، حتى إنه قبل ذلك كان يزيد بن هارون الواسطي محدثاً مشهوراً كبيراً عالماً ذهب عيناه، فقيل: ما فعل الله بعينيك يا يزيد بن هارون؟ قال: أذهبهما بكاء الأسحار. حتى قال ابن عباس:»

إِنْ يَأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا فَصِي فُؤَادِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ
عَقْلِي ذِكْرِي وَقَلْبِي غَيْرُ ذِي عِوَجٍ وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَشْهُورُ

فهنيئاً لمن دمعت عينه من خشية الله وتقواه، حتى إن من السبعة الذين يُظلمهم الله في ظلمه يوم لا ظل إلا ظله كما أخبر سيد الخلق صلى الله عليه وسلم: «رَجُلٌ ذَكَرَ اللهُ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ». أي: حيث لاريباء ولا سمعة ولا يراه أحد. وهؤلاء الشعراء حينما يتحدثون عن مسألة الدموع فإنهم يسهبون ويبالغون، حتى يقول أبو الطيب:

بَادِرٌ هَوَاكَ صَبْرَتْ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا وَبُكََاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

في قصيدته التي مدح فيها ابن العميد وهي من أشهر قصائده، يقول في ابن العميد:

مَنْ مُخْبِرُ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهُمْ ^(١) جَالَسْتُ جَالِيئُوسَ وَالْإِسْكَانِدْرَا
وَقَرَأْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كُتُبِهِ مُتَبَدِّئًا مُتَعَلِّمًا مُتَحَضِّرَا
قَطَفَ الرِّجَالُ الْقَوْلَ قَبْلَ نَبَاتِهِ وَقَطَّضَتْ أُنْتُ الْقَوْلَ لَمَّا دَوَّرَا

(١) أي: ترك العرب وراح إلى فارس.

العيون في الشعر

على مذهب الشعراء في المبالغة إلا المتنبى؛ فإن له أبياتاً في العيون وفي البكاء، حتى إنه يقول:

إِنَّ الْمُحِبَّ مُضْرَجٌ بِدُمُوعِهِ مِثْلَ الْقَتِيلِ مُضْرَجٌ بِدِمَائِهِ

في قصيدته التي يقول فيها:

لَا تَعْذَلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ

ويقولون: إن أبداع ما فعله العرب الفراقيات، لأن الفراق هذا هو الموت الأحمر، كما يقول صاحب (طوق الحمامة). فها هو أبو الطيب يقول:

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجِدْتُ لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلَا

الفراق موت أحمر، حتى إنه قيل لجعفر الصادق: لماذا لا تتخذ لك إخواناً؟ قال: خوف وحشة الفراق. لأنني إذا أخيتهم، ثم ابتعدوا عني وفارقوني، فلا أستطيع أن أواصل. وكان ابن المبارك إذا ودّع إخوانه في الله يبكي ويقول:

وَحَفْظٌ وَجِدِي فِي الْبُعَادِ لِأَنَّهُ فِرَاقٌ حَيَاةٍ لَا فِرَاقٌ مَمَاتٍ

أي: إن الذي خفف عليه المصيبة أنه يفترق ثم يعود، إلا فراقاً واحداً ليس فيه عودة وهو الموت ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَانَهُمْ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَكِيمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]. فينبغي للإنسان إذا فارق أحبابه أن يتذكر ذلك الفراق، وإذا سافر من مكان أن يتذكر ذلك السفر، وإذا ودّع المحبين أن يتذكر وداع الدنيا والقدوم عليه **موتاً**، فهذا شأن الأدب العربي في استخدام الفراقيات، وهو الذي يُسمى عند الدموع لغة العيون، فإن العين هي الموضحة وهي الجالية لما يعتقد صاحبها، وهي التي تُظهر الأسرار من خلال خلجاتها، ومن خلال تقلباتها، فذلك ذكروا دموعهم وذكروا أساها وكيف أنهم تأثروا، وكيف أن ذلك دمعت عيناه وأرسل دموعه على حبيبه.

ذهبت إلى طهران في إيران من أجل ديوان السعد الشيرازي؛ لأن عنده
حكمة، حتى يقول من ضمن أبيات جميلة:

مَا مَرُّ طَيْفِ الْهُوَى بِمَسْمَعِي لَوْ سَمِعْتُ حَمَامَ الْحِمَى نَاحَتْ مَعِي
يَا مَعْشَرَ الْخِلَائِنِ قُولُوا لِلْمُعَافَى: لَيْسَ تَسْدرِي مَا بِقَلْبِ الْمُوجَعِ

وهو صاحب المقطوعة المشهورة، فهي مقطوعة عالمية تُرجمت إلى لغات
كثيرة، يقول:

قَالَ لِي الْمَحْبُوبُ لَمَّا زُرْتُهُ: مَنْ بِيَابِي؟ قُلْتُ: بِالْبَابِ أَنَا
قَالَ لِي: أَخْطَأْتُ تَعْرِيفَ الْهُوَى حِينَمَا فَرَقْتُ فِيهِ بَيْنَنَا
وَمَضَى عَامٌ فَلَمَّا جِئْتُهُ أَطْرُقُ الْبَابَ عَلَيْهِ مُوهِنًا
قَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: انظُرْ فَمَا تَسْمُ إِلَّا أَنْتَ بِالسَّبَابِ هُنَا
قَالَ لِي: أَحْسَنْتَ تَعْرِيفَ الْهُوَى وَعَرَفْتَ الْحُبَّ فَادْخُلْ يَا أَنَا

فسموها: يا أنا. في الاتحاد العالمي، حتى إن بعضهم يقول: إنها موجودة
الآن في مجلس الأمن باللغات لاتحاد الأمة. أي: أنا وأنتم شيء واحد. ويذكرني
ذلك بهبنقة وهو أحقق، يقول: إن أمه ألبسته فلادة ونام بها، ثم قام أخوه وهو
نائم وأخذ القلادة من عنقه وكان عهده أن القلادة في عنقه، فأيقظ أخاه من
النوم، فقال: يا أخي، أنت أنا فمن أنا؟ وذكرني ذلك بأبي بكر الصديق رضي الله عنه
وهو أرفع وأجل وأعظم - وهذا يسمونه شاهداً - أتى فكتب لعبيبة بن حصن كتاباً
أن له قطعة أرض، أي: هبة وأعطية. لأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «ارْسُمَهَا
وَاخْتُمْهَا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: الْخِتْمُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه». لأنه
كان قاضي المدينة والختم عنده، فذهب عبيبة لابن الخطاب، وإذا هو يطلي إبل
الصدقة في سبيل الله، كان يطليها يريد الأجر والمثوبة رضي الله عنه، ولا غرو، فهو من

أولئك الملائ الأبرار، فقال: هذا خطاب من خليفة رسول الله ﷺ أقطعني الأرض الفلانية من جبل كذا إلى جبل كذا. قال: «أنتني بالخطاب». فقرأه فمزقه عمر رضي الله عنه قال: تمزق خطاب أبي بكر رضي الله عنه ولم تختمه! قال: «كذا نتألفكم يا عبيدة، والإسلام كان ضعيفاً، أما الإسلام فقد أصبح بارزاً قارحاً قوياً، فإن ارتدت ضربناك بالسيف». فعاد إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مغضباً، فقال: «أنت الخليفة أم عمر! قال: أنا هو غير أنه إياي». أي: ما الفرق بيني وبينه؟ أبو بكر عمر وعمر أبو بكر. فهما روح في جسدين، ولذلك جمع بينهما الإسلام والدين، فصار الواحد منهم يقول كلمته، حتى إن أبا بكر رضي الله عنه سكت في اليوم الثاني لوفاة رسول الله، بعدما تكلم في اليوم الأول وأغمي على عمر رضي الله عنه، فتكلم وكان فارس الحلبة ذاك الوقت أبو بكر رضي الله عنه، وفي اليوم الثاني رجع أبو بكر رضي الله عنه يبكي لما تذكر المنبر ووفاء رسول الله ﷺ، فقام عمر رضي الله عنه يخطب في الناس وقال: «بايعوا أبا بكر». وذكر مناقبه وأخذ يد أبي بكر أمام الناس ورضعها، وأخذ يقيمها للناس ويبايع أبا بكر «فهؤلاء هم الملائ الأخيار».

وتعود إلى كلمة السعد الشيرازي؛ لأن هناك أدباً عربياً وأدباً فارسياً، حتى إنهم يجعلون الشعراء العالميين الخمسة في هذا العصر: شكسبير من الإنجليز، ومحمد إقبال من باكستان، وطاغور من الهند، وجلال الدين الرومي من تركيا، والسعد الشيرازي من إيران. وعموماً وجد في العصر شعراء كبار، لكن لأن هؤلاء تَرَجَمَ شعرهم للغات كثيرة وهم يخاطبون العالم في شعرهم، وإلا فإن في العرب شعراء أفواى، لكن بعضهم محلي إقليمي وبعضهم لم يترجم شعره للناس، فنرجع ونقول: إن من أحسن ما يقوله العرب إذا ذكروا الشجاء وذكروا الفراق، حتى إن أحدهم يقول:

شَكَاَ أَلَمَ الْفُرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي وَرُوعَ بِالْجَوَى حَيٍّ وَمَيِّتٍ
وَأَمَّا مِثْلَ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي فَإِنِّي مَا سَمِعْتُ وَمَا رَأَيْتُ

والطنطاوي استحسن مثل قول مجنون يوم يقول:

جَعَلْتُ لِعِرَافٍ (١) الْيَمَامَةَ حُكْمَهُ وَعِرَافٍ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفِيَانِي

يقول: أتيت عند عراف اليمامة وعراف نجد، فقلت: احكموا في أمري، وخذوا ما تريدون من الإبل والمال [ما شئتم]. على أن تدأوياني من هذا الحب وهذا الهوى، فوالله ما من رقية يعلمانها ولا شربة إلا بها سقياني، فقالا: شفاك الله، والله ما لنا بك حيلة:

فَقَالَا: شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهِ مَا لَنَا بِمُكُونِ مَا تَحْوِي الضُّلُوعُ يَدَانِ

فالإنسان إذا تولى بشيء صار همه وكاد يقتله، حتى إنهم يذمون العشق.

وقد قرأت لابن عباس «يوم عرفة قال: «أعوذ بالله من العشق، أعوذ بالله من العشق». لأنه رأى رجلاً في عرفة يمشي كالموسوس، قال: ما هذا؟ قالوا: عاشق كاد يذهب عقله وأصيب بالذهول. فقال ابن عباس: «أعوذ بالله من العشق». والمنتبي في القافية يقول في قصيدة مشهورة له:

وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى دُقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعِشُقُ ؟
وَعَدَرْتُهُ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنِّي عَيْرْتُهُمْ فَلَقِيَتْ مِنْهُمْ مَا لَقُوا

يقول: ابتلاني الله؛ لأنني كنت أستهزئ بهم، فقلت: كيف يعشق الإنسان؟ ولكن الأولياء لهم حب أرفع وأسمى وهو حب الواحد الأحد؛ يحيهم ويحبونهم، حتى إن أحد الصالحين الأخيار من الشعراء يقول:

إِذَا كَانَ حُبُّ الْهَائِمِينَ مِنَ الْوَرَى بِلَيْلِي وَسَلَمِي يَسْلُبُ اللَّبَّ وَالْعُقْلَا
فَمَاذَا عَسَى يَصْنَعُ الْهَائِمُ الَّذِي سَرَى قَلْبَهُ شَوْقًا إِلَى الْعَالَمِ الْأَعْلَى

(١) عروة بن حزام.

إذا كان حب المرأة وحب المال وحب المنصب يسلب العقل، فكيف بمن أحب الله ﷻ! ولذلك أعظم كلمة: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. حتى يقول الألوسي يمدح الواحد الأحد في الحب:

إِلَيْكَ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرُّكَّابُ وَمِنْكَ وَإِلَّا فَالْمُؤْمِلُ خَائِبٌ
وَفِيكَ وَإِلَّا فَالْفَرَامُ مُضَيِّعٌ وَعَنْكَ وَإِلَّا فَالْمُحَدِّثُ كَادِبٌ

فنسأل الله أن يجعلنا من أحبائه، وليس العجب من قوله: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. فإنه ﷻ خلقهم ورزقهم لكن العجب من قوله: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. كيف أنه خلقهم وأعطاهم ومنحهم وتولاهم، ثم أحبهم ﷻ، ومفاتيح محبته ﷻ القيام بالفرائض وتلاوة كتابه بتدبر وكثرة ذكره، وعمل الصالحات واتباع سيد الخلق ﷺ وتجديد التوبة وكثرة الاستغفار. فهذا هو الذي يبلغ درجات الصديقية عند الله الواحد الأحد.

أَحِبُّكَ لَا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَبَوْتِي أَفْسِرُ مَاذَا وَالْهَوَى لَا يُفْسِرُ



oboeikendi.com

قصة وقصبة

نعني بها القصة التي عمّلت من أجلها
القصيدة ونظّمت، لأن الشعر إذا اتفق مع النثر
أنتجا إبداعاً بشرياً.

ومن ذلك أنه ﷺ قبل أن يغزو مكة ويفتحها
منتصراً؛ ليعيد الحق إلى نصابه وليؤسس دولة
العدل في العالم، وليقيم الحضارة الربانية، إذ
كان ﷺ خرج شريداً طريداً من مكة، لكن انظر
إلى نصره ﷺ جمع له القبائل والناس، ودخل الناس
في دين الله أفواجا، فأتى يزحف بالجيش إلى مكة،
وقبلها يقول حسان بن ثابت كأنه ينظر إلى المعركة
ويراها وهو شاعر الإسلام شاعر الرسول ﷺ،

يقرب له الرسول ﷺ المنبر ويقول: «أَهْجُهُمْ وَرُوحُ الْقُدُسِ يُؤَيِّدُكَ». أي: جبريل معك. فما هو بأي كلام، حتى السماء معه، حتى يأتيك حسان ﷺ بالقافية كأنها صاعقة تُحرق ما قبلها، حتى يقول حسان ﷺ:

وَبِیَوْمِ بَدْرٍ إِذْ يَصْدُ وَجُوهُهُمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

يقول: قيادة السماء مع جبريل ﷺ وقيادة الأرض مع محمد ﷺ، والصحيح أن الذي قاد الملائكة -عليهم السلام- وقاد الصحابة ﷺ هو محمد ﷺ، فالقيادة العليا في يد الرسول ﷺ، فقبل معركة بدر يقول حسان ﷺ:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كُدَاءُ

يقول: لارد الله علينا خيلنا، لا جعلها ترجع إذا لم تروها تثير الغيار في مداخل مكة طوابير تدخل في مواكب مع رسول الله ﷺ، والنقع: الغيار. وكداء: جبل كُدَيّ يُقَابِلُهُ فِي مَكَّةَ. حتى يقول ابن الفارض:

مَنْ لَقِبَ حَلَّ جِرْعَاءِ الْحِمَى ضَاعَ مِنِّي هَلْ لَهُ رَدُّ عَلَيَّ
فَأَسْأَلُوا سُكَّانَ وَاوِي سَلَمٍ فَهُوَ مَا بَيْنَ كُدَاءِ وَكُدَيَّ

فحسان ﷺ قبل المعركة يقول:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كُدَاءُ
تَطَّلُ جِيَادُنَا مَتَمَطِّرَاتٌ تُلَطَّمُهُنَّ بِالْحُمْرِ السَّمَاءُ

أي: إن الفارس يأخذ راحته، يسبح سباحاً، يقفز بالبطل، على ظهره خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، يسبح بهم سباحاً، كأنه يسبح في الموج.

فَأَمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا

يقول: دعونا نكمل العمرة، دعونا فالحق معنا، دعوا محمداً ﷺ يدخل البيت.

وَكَانَ الْفَتْحُ وَالْكَشْفُ الْغَطَاءُ

انتهى الموضوع وبيان الحق من الباطل، بان الصدق من الكذب وأنتم على الكذب.

وَالْأَفْصِيحُ وَالْجَادِلُ يَوْمَ يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

أي: دعونا نتصارع نحن وأنتم، ونتجادل بالسيوف والله يعز من يشاء.

وَقَالَ اللَّهُ: قَدْ أَرْسَلْتُ جُنْدًا هُمْ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُهُ الْبِقَاءُ

وأنعم بالأنصار ﷺ ورحمهم وجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍ سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءٌ

فَنَهْجُوا بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

ثم عرض بأبي سفيان بن الحارث، وكان يهجو رسول الله ﷺ فقال:

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغْلَغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ

بِأَنَّ جِيُوشَنَا تَرَكَّتْكَ عَبْدًا وَعَبْدُ السِّدَارِ سَادَتُهُ الْإِمَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفَاءٍ

وهذا قبل إسلامه، لكنه أسلم فيما بعد ﷺ، وحتى كل الأمة لا تصل ذرة

من جلاله ﷺ.

فَشَرُّكُمَا الْخَيْرُ كَمَا الْفِدَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَدَاءُ

هَجَوْتُ مُبْرَأً بَرَأً رَحِيمًا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

لا يعدله أحد ﷺ.

وانطلقت الجيوش فاتحة وأتى رسول الله ﷺ فقسّم الجيوش على أربعة أقسام
تدخل مكة من أربع جهات، دخلت ثلاثة منها دون مواجهة إلا جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه
فتعرّض له عكرمة رضي الله عنه وأناس معه عند الخندمة، مدخل من مداخل مكة.

وجاء أحد كفار قريش وكان يسقي سيفه السم قبل دخول المسلمين، تقول
زوجته: ما لك؟ قال: أقتل بهذا محمداً. ويوم جاء المعركة حضر هذا بسيفه الذي
سماه سماً، إذ أقبل سيف الله المسلول خالد بن الوليد أبو سليمان رضي الله عنه، وأقبل
بالخيول وفلول المسلمين، ولما اقترب من عكرمة رضي الله عنه ومن معه فخرج لهم خالد،
أي: أظهر أنه فارٌّ منهزم. ثم اغترهم فخرجوا له، فلما خرجوا بخيولهم كرّ عليهم
خالد رضي الله عنه ولعب فيهم وصفى حسابهم في ذلك اليوم، هرب صاحب السيف ودخل
غرفته وأغلق الباب فقالت امرأته: قاتلك الله، أما قلت: تقتل محمداً. فقال:

إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكْرِمَةُ

يقول: فر الأبطال والقادة.

وَالْمِسْلُومُونَ خَلَضْنَا فِي عَمْعَمِهِ لَمْ تَنْطِقِي فِي الدُّومِ أَدْنَى كَلِمَةٍ
يُطَارِدُونَ بِالسُّيُوفِ الْمُثْلَمَةِ

يقولون: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. مثلثة: مكسرة.

ليست كيسوفتنا. يقول النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سِيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُودٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ

والشاهد أنه دخل ﷺ مع كتيبته الكتيبة الخضراء، معه ألف من الأنصار
ما يرى منهم إلا العيون، كلهم عليهم الحدق والخوذات والدروع والسيوف، انظر
النصر العظيم، استلم مكة عاصمة الدنيا، نصر نصراً عزيزاً صفت له أبواب
السماء ونزلت الملائكة وفتحت الجنان له، دوى الدهر والتاريخ وقف وكل الزمان

قصة وقصيدة

وقف، أكبر نصر في العالم، أتى ودخل ﷺ ينظر، فإذا المعان السيوف هناك وإذا الخيول، ثم نظر وإذا في أحد طرق مكة وإذا خيول خالد بن الوليد شهباء أقبلت حافية حامية، وإذا النساء تخرج الواحدة عليها خمارها وتضرب وجه الفرس، فأخذ يتبسم ﷺ وأخذ يده على فمه، وقال: «يا أبا بكر، - وكان أبو بكر ﷺ يحفظ الشعر ويرويه - كَيْفَ يُقُولُ حَسَّانُ؟. قَالَ: يُقُولُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النُّقْعَ مَوْعِدَهَا كُدَاءُ
تُظِلُّ جِيَادُنَا مَتَمَّ طِرَاتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فتعجب رسول الله ﷺ من أن حسان بن خالد قدّم هذه الصورة المشرقة، فأنت مثلما قال ﷺ، وهذه قصة قصيدة حسان: عدمنا خيلنا.

أما بيت مشهور لعلي بن جهم الشاعر الصالح الناصح فيقول فيه:

عُيُونُ الْمَهَائِيْنِ الرِّصَافَةِ وَالْجِسْرِ جَلْبَنُ الْهُوَيِّ مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي

الرصافة في بغداد والجسر جسر الكرخ، فقد كان الشاعر في البادية وعنده غنم وما كان يعرف إلا التيس والكلب، يرعى الغنم ويرى التيس إذا نطح التيس الآخر وطرحه فظن أن أشجع شيء في العالم التيس؛ لأن البيئة تصنع أفكار الإنسان فلا يعرفون إلا هذا، ورأى الكلب مثلاً للوفاء، إذ لا ينيح صاحبه، فذهب مع الشعراء من البادية ودخل مع الشعراء على المتوكل الخليفة العباسي، وجاء الشعراء أهل الحضارة يمدحونه، وجاء هو على نيته، فوقف عند المتوكل، وقال:

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاظِكَ لِلدَّوْدِ وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

فيقول: إنك مثل الكلب في الوفاء، ومثل التيس في الشجاعة. وهو شاب بدوي، فقال وزير المتوكل: أمسكوه. قال المتوكل: دعوه، أين عشت؟ قال: أنا عشت في البادية يا أمير المؤمنين. قال: اتركوه؛ هو لا يعرف إلا البادية يظن أنه

مدحنا، خذوه سنة في الكرخ- والكرخ: مدينة ذات منزلة ومكانة عالية- دعوه يرى الحياة ويرى الدنيا. فراح وسكن هناك فرأى هؤلاء الذين يَمرون والحدائق الغناء والبساتين، ونهر دجلة يضرب ذات اليمين وذات الشمال والحدائق تتمايل، وبعد سنة قال المتوكل: أدخلوه مع الشعراء. فلما دخل بعد سنة، قال: أنشد. قال:

عُبُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرِّصَافَةِ وَالْحِجْرِ جَلِبْنَ الْهُوَى مِنْ حَيْثُ أُدْرِي وَلَا أُدْرِي
أَعْدَنُ لِي الشُّوقُ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدُنْ جَمراً عَلَى جَمْرِ

قصيدة من أجمل ما قيل، والمها الغزال، يقصد النساء. جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى من حيث أدرى ولا أدرى: شيء أعرفه وشيء لا أعرفه.

وَقَلْنُ لَنَا: نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا تُضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بَلِيلٌ وَلَا تَقْرِي
فَلَا بَدَلُ إِلَّا مَا تَزُوْدُ نَاطِرٌ وَلَا وَصَلَ إِلَّا بِالْخِيَالِ الَّذِي يَسْرِي
أَحِينَ أَرْحَنَ الْقَلْبَ عَنِ مُسْتَقْرَهُ وَالْهَبْنَ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالصَّدْرِ
صَدَدَنْ صَدُودَ الشَّارِبِ الْخَمْرَ عِنْدَمَا رَوَى نَفْسَهُ عَنْ شَرْبِهَا خِيفَةَ السَّكْرِ
فَإِنْ حَلَنْ أَوْ أَنْكَرْنَ عَهْدًا عَهْدَهُ فَغَيْرُ بَدِيحٍ لِلْغَوَانِي وَلَا نَكْرِ
وَلَكِنَّهُ أَوْدَى الشَّبَابُ وَإِنَّمَا تُصَادُ الْمَهَا بَيْنَ الشَّبِيْبَةِ وَالْوَفْرِ
كَضَى بِالْهُوَى شُعَالًا وَبِالشَّبَابِ زَاجِرًا لَوْ أَنَّ الْهُوَى مِمَّا يُنْهَتُهُ بِالزَّجْرِ
كَفَاكُم بِأَنَّ اللَّهَ فَبَوْضَ أَمْرَهُ إِلَيْكُمْ وَأَوْحَى أَنْ أَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ
وَلَمْ يَسْأَلِ النَّاسَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ سِوَى وَدَدِي الْقَرِيبِ الْقَرِيبَةِ مِنْ أَجْرِ
وَلَنْ يُقْبَلَ الْإِيمَانُ إِلَّا بِحُبِّكُمْ وَهَلْ يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ بِلَا طَهْرِ
وَمَنْ كَانَ مَجْهُولَ الْمَكَانِ فَإِنَّمَا مَنَازِلُكُمْ بَيْنَ الْحَجَّوْنَ إِلَى الْحَجْرِ
وُجُوهُ بَنِي الْعَبَّاسِ لِلْمَلِكِ زِينَةٌ كَمَا زِينَةُ الْأَفْلاكِ بِالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ
وَلَا يَسْتَهْلُ الْمَلِكُ إِلَّا بِأَهْلِهِ وَلَا تُرْجَعُ الْأَيَّامُ إِلَّا إِلَى الشَّهْرِ

إلى آخر ما قال في قصيدة طويلة، فأعطاه جائزة، وقال: هكذا يكون الشعر.

فالإنسان ابن بيئته وعلى تصويره ولذلك يُحَيِّنون أن تتكلم عن البيئة فلا تذهب إلى البادية وتتكلم عن مشكلة العمل والعمال والبورصة والأسهم، ولا تذهب إلى المدينة تتكلم عن الأشجار الممتزعة عليها في البادية، أو عن صندوق القبيلة، لكل مقام مقال، هذه قصتها.

أسلم بجير أخو كعب بن زهير رضي الله عنه فغضب كعب بن زهير، فهجا الرسول ﷺ وهجا دينه، فأهدر رسول الله ﷺ دمه؛ لأنه سب الإسلام وسب الدين وسب الرسالة واستهزأ، فاستشار العرب فقالوا له: ما دمت تعرضت لمحمد فقد انتهى الموضوع، ما لك إلا أن تسلم نفسك له. فيروى: «فأتى وصلى الفجر مع رسول الله ﷺ، بعدما صلى رسول الله ﷺ جلس عنده، قال: من أنت؟ قال: كعب بن زهير». وكان ﷺ حليماً وهو سيد الحلم، قال: «يا رسول الله، اسمع مني: بانئت سعداً. قال ﷺ: من سعد؟ قال: زوجتي. قال: ثم تبين إذا». وشعراء العربية لا بد من أن يبدؤوا بالغزل، وقال:

بانئت سعداً فقلبي اليوم متبولٌ متيمٍ إثرها لم يصد مكيولٌ

ثم مضى فيها، فقال:

نبئت أن رسول الله أوعدني مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
لا تأخذني بأقوال الوؤساء ولم
والعضو عند رسول الله مأمولٌ
قرآن فيها مواعيط وتفصيلٌ
أذنب ولو كثرت في الأقاويل

وقال:

وقال كل خليل كنت أمده
مازلت أقتطع البيداء مدرعاً
لا أنهيتك إني عنك مشغولٌ
جنح الظلام وكوب الليل مسبولٌ
في كفا ذي نجمات قبيله القيل

لَمَّا أَكَلْتُمُهَا إِذْ أَكَلْتُمُهَا
 مِنْ ضَيْغَمٍ مِنْ ضِرَاءِ الْأَسَدِ مُخْبِرَةٌ
 إِنَّ الرُّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
 فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ
 شَمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالٌ لَبِوسُهُمْ
 يَمْشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزُّهْرِيَّ عَصِمُهُمْ
 لَا يَفْعُ الطَّعْنَ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ
 وَقِيلَ: إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَمَسْؤُولٌ
 بِبَطْنِ عَثْرٍ غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ
 مُهَنْدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُودٌ
 بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُودُوا
 مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ
 ضَرَبَ إِذَا عَرَدَ السَّوْدُ التَّنَابِيلُ
 مَا إِنْ لَهُمْ عَنِ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

إلى آخر ما قال وعفا عنه رسول الله ﷺ وخلع له برده، فتسمى هذه البردة،

ونظم فيه البوصيري قصيدة يقول فيها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِيَدِي سَلِمَ
 أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاظِمَةٍ
 فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ: اكْفَمَا هَمَّتَا
 مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةِ بِنَمٍ
 وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إَضْمٍ
 وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفَقَ بِهِم

وسار عليها شوقي، فيقول:

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانَ وَالْعَلَمِ
 زَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنِي جُوذِرَ أَسَدًا
 أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
 يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَذْرِكُ سَاكِنَ الْأَجْمِ

ونظمت عليها قصيدة في مدحه ﷺ، فقلت:

أَنْصِتْ لِمِيمِيَّةِ جَاءَتْكَ مِنْ أَمَمٍ
 إِنْ كَانَ أَحْبَبْتُ بَعْدَ اللَّهِ مِثْلَكَ فِي
 فَلَا اسْتَفَى نَاطِرِي مِنْ مَنْظَرِ حَسَنِ
 مِدَادُهَا مِنْ مَعَانِي ذُونَ وَالْقَلَمِ
 بَدُوْ وَحَضْرٍ وَفِي غُرْبٍ وَفِي عَجَمِ
 وَلَا تَفْوَهُ بِالْقَوْلِ السَّيِّدِ فَمِي

هذه قصة: بانة سعاد.

وأذكر في التاريخ المعاصر الحاضر ملك اليمن أحمد بن حميد الدين في الثورة، ثورة الانقلاب التي ما نجحت والجمهوريون كادوا ينجحون في الثورة الأولى عليه، فأسر منهم سبعين ووضعهم في السجن وأخذ كل يوم من أيام الجمعة يقطع رأساً منهم، العلماء والقضاة والأدباء منهم: الكبيسي، وابن النعمان، ومحمد بن محمود الزبيري. أي: كبارهم. فلما وضعهم هناك تشفع فيهم كثير، حتى وفد من جامعة الدول العربية فرفض، حتى إنه يقول لو وفد جامعة الدول العربية: لو نزلت السماء حتى تصل إلى هنا وارتفعت الأرض إلى هناك لا أتركهم. لأنهم دبروا ليحيى بن حميد الدين الملك الأول والده، فدخل عليه أحد الشعراء، فقال: ائذن لي ألقى عليك قصيدة، أنا لبست الكفن تحت ثوبي هذا واسمع مني القصيدة إن عفوت فاعفُ عني وإلا فاقتلني معهم. قال له الملك: لِمَاذَا؟ قال: لا تصلح اليمن إذا قتل سبعون من علمائهم وقضاتهم ووجهائهم، فما المراد من اليمن؟ فقال: قل قصيدتك. قال:

يَا أَبَا الْمَجْدِ يَا بَنَ مَاءِ السَّمَاءِ يَا سَلِيلَ النُّجُومِ فِي الظُّلْمَاءِ
فَأَجِرْنِي كَالْمَطْعَمِ بِنِ عَدِي حِينَ قَالِ السُّبْيِيُّ...

يقول: أنت يا بن ماء السماء، يا أبا المجد، من ضمنها يقول: افعل فعل جدك محمد ﷺ - لأمه لأنه من آل البيت - الذي يقول ﷺ: «لَوْ كَلَّمَنِي الْمَطْعَمُ بِنِ عَدِي فِي أَسْرَى بَدْرٍ كُنْتُ تَرَكْتَهُمْ لَهُ». لأن المطعم بن عدي مشرك، لكن من أعيان مكة. طاف الرسول ﷺ في حمايته ومنعه وأجاره فلما هاجر الرسول ﷺ وانتصر في بدر وأتى بالسبعين من الأسرى، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَلَّمَنِي الْمَطْعَمُ بِنِ عَدِي فِي هَؤُلَاءِ النَّسَى لَتَرَكْتَهُمْ لَهُ». سبعون وأولئك سبعون.

قال: قد أجزتكم وقد عفوت عنهم جميعاً. فأطلقهم ومنهم الزبيري الذي ذهب إلى باكستان، وخاطب اليمن في قصيدة رائعة ذائعة.

وهنا بعض الوقفات السريعة، المتنبّي أتى يمدح سيف الدولة وعنده ابن خالويه النحوي، وبعض النحاة يتقعون ويتشددون في الشعر، والنحو والعبقرية، ما يعرفون الدخول في تفاصيل، والمتنبّي عبقرى في الشعر لكن الحاسد يبحث عن العيوب في أشعارك وفي كتبك وفي أخلاقك، فكان ابن خالويه جالساً وسيف الدولة يستمع، فيقول المتنبّي قصيدته القوية الرائعة:

نَعُدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونُ بِإِلَاقَتَالِ

يقول: نجهز الرماح والسيوف من أجل أن نقاتل بها العدو، بينما تأتي المنايا ما يقاتلن بسلاح، يقتلننا على الفرش والوسائد.

وَتُرْتَبَطِ السُّوَابِقُ مُقَرَّبَاتِ

يقول: حتى الخيول جهزناها نصبح العدو بها.

فَمَا يُنْجِينُ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي

يقول: وراءنا الليالي أقبلت.

كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالِي

قال ابن خالويه: لو قلت: مستقيم في اعوجاج. كان أحسن، قال: كي أقول في

البيت الثاني:

وَإِنْ تَفُقِ الْأَنَامُ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغُرَالِ

هذا من إشارات المتنبّي ولعلها فهمت؛ لأنك إن اضطررتني أن أغير الجيم

في محالي فتكون اعوجاجي لتغير الروي وفسد المعنى.



كلمة الحب

كلمة الحب كلمة جميلة مُشْرِقة، لا يُعبّر عن
الحب إلا كلمة الحب، وهو متكون من حرفين، حتى
إن الشفتين حينما ينطق الإنسان بالحب تلتقيان
بعد فراق وبعد قطيعة، والله ﷻ ذكر الحب في
كتابه في آية موحية ومؤثرة فيقول ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ
بِقَوْمٍ مُّجِبُّهُمْ وَيُجِيبُونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى
الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ
لَا يُعِيبُ ذَلِكَ فَضْلَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿

[المائدة: ٥٤]. أي: إن أولياءه ﷻ والصالحين من

عباده يحبهم ﷺ، وليس العجب من قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. فإنه هو الذي خلقهم وأعطاهم ووهبهم ﷺ، لكن العجب من قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. فكيف أنه هداهم واجتباهم ووقفهم ثم أحبهم ﷺ.

وقد تبارى الشعراء والحكماء في مسألة الحب، فمنهم من صرفها للمال ومنهم من صرفها للثروة وللمنصب ومنهم من صرفها للمرأة وإلى غير ذلك، ونقف وقفات مع بعض الشعراء.

فيشار بن برد كان أعمى بصر وأعمى قلب وذهب إلى ربه، فيقول هو:

يَا قَوْمِ، أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأَذُنُ تَعَشِقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا

لأنه ما كان يرى لكن بالأذن وبالسماح أحب، ويقول: إنهم يقولون له:

وقالوا: لَوْ سَلَيْتُ قَلْبَكَ لَأَزَعَوِي فَقُلْتُ: هَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ

فيقول: ما لنا قلوب أصلاً، فلو كان لنا قلوب لسليناها، لكنها ليست موجودة أصلاً.

ولكن أحد الشعراء يلفت النظر إلى حب آخر وهو حب الواحد الأحد ﷺ،

الذي استوجب الشكر واستوجب الثناء الحسن ومن أحبه استوجب الأجر العظيم وسكنى جنات النعيم، يقول:

إِذَا كَانَ حُبُّ الْهَائِمِينَ مِنَ الْوَرَى بِلَيْلِي وَسَلَمِي يَسْلُبُ اللَّبَّ وَالْعَضَا

فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الْهَائِمُ الَّذِي سَرَى قَلْبَهُ شَوْقًا إِلَى الْعَالَمِ الْأَعْلَى؟

يقول: هؤلاء يُصرعون من أجل امرأة وخدود وعيون، فكيف بمن أحب الباربي عز الدين
بأسمائه وصفاته؟

والمتنبي يستفتح أبياته وقصائده في العادة بمثل هذا، وله قصيدة رقيقة في
الحب والعشق، فيقول:

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ	وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقُّقُ
جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى	عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفِقُ
مَا لَاحَ بَرُقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ	إِلَّا انْتَنَيْتُ وَلِي فُوَادٌ شَيْقُ
وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى دُقْتُهُ	فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشُقُ
فَعَدَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ دَنْبِي أَنْبِي	عَيْرْتُهُمْ فَلَقَيْتُ مِنْهُمْ مَا لَقُوا

معانيها جميلة بلا شك في هذا الباب، وكلنا بيدي وجهة نظره في العشق
والحب، حتى إن ابن عباس «يوم عرفة قال: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِشْقِ». لأنه رأى
رجلاً من المسلمين في عرفة وإذا هو موسوس وفيه ذهول، فقال: «مَنْ هَذَا؟»
قالوا: موسوس. قال: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِشْقِ». لأنه يتعب القلب ويفقد النفس
استقرارها؛ لأن صاحبه لا يتدبر القرآن، كما ينبغي ولا يشتغل بالعلم فيبقى
كالحيران المذهول.

ومن الشعراء المعاصرين نزار قباني لما ذهب إلى تونس، يقول:

يَا تُونِسُ الْخَضْرَاءُ جِئْتُكَ شَاعِراً	وَعَلَى جَبِينِي وَرْدَةٌ وَكِتَابُ
إِنَّ الدِّمَشْقِيَّ الَّذِي عَشِقَ الْهُوَى ^(١)	إِنَّ الْهُوَى أَلَا يَكُونُ إِسَابُ
دَمٌ دِمَشْقِيٌّ يُسَافِرُ فِي دَمِي	وَسَنَابِلٌ وَخَمَائِلٌ وَقُبَابُ

(١) لأن أصله من دمشق.

عَشِقُوا الْجَمَالَ وَدُوبُوهُ وَدَابُّوا
 الْحُبُّ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَأَهْلُهُ
 أَسَدَتِ رَأْسَكَ جَسُولٌ يَنْسَابُ
 وَالْمَاءُ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَإِنَّمَا
 وَبِبَابِهَا تَتَشَكَّلُ الْأَخْرَابُ
 وَدِمَشْقُ تَهْدِي لِلْعُرُوبَةِ لَوْنَهَا

وأحد الرؤساء زاره رئيس آخر فذهبوا إلى قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه في حمص يزورونه، والأولى بمن يزور قبر حمص أن يُحرر الأرض أولاً، ثم يزور قبر سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه، فنزار اعترض على هذا بقصيدة، يقول فيها:

أَلْقَيْتُ فَوْقَ تَرَاكِ الطَّاهِرِ الْهَدْبَا
 دِمَشْقُ يَا كَنْزَ أَخْلَامِي وَمَرْوَحَتِي
 أَذَمْتَ سِيَاطُ حَزِيرَانَ^(١) ظُهُورَهُمْ
 وَطَالَعُوا كُتُبَ التَّارِيخِ وَاقْتَنَعُوا
 فَيَا دِمَشْقُ لِمَادَا نُكْثِرُ الْعَتْبَا
 أَشْكُو الْعُرُوبَةَ أَمْ أَشْكُو لَكَ الْعَرَبَا
 فَادْمُنُوهَا وَدَاسُوا كَفَّ مَنْ ضَرَبَا
 أَنْ الْبِنَادِقِ مِنْهَا تَسْكُنُ الْكُتْبَا
 وَقَبْرُ خَالِدٍ فِي حِمصٍ نَلَامِسُهُ
 فَيَرْجِفُ الْقَبْرُ مِنْ لَأَوَائِهِ غَضْبَا
 يَا بَنَ الْوَلِيدِ الْأَسِيفِ تُوجِرُهُ
 فَإِنَّ أَسْيَافَنَا قَدْ أَصْبَحَتْ خَشْبَا

هذا على ذكر حب الديار وحب الوطن الذي قاله، ولكن أحسن قصيدة عنده في الوجد والفراقيات هي قصيدة ابن زيدون: بنتم وبنا. وقد عارضها كثير، لكن ما وصلوا إلى مستواها، الذي يقول فيها:

بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا
 تَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا
 شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَمَا جَفَّتْ مَاقِينَا
 لَيْسَ عَهْدِكُمْ عَهْدُ السَّرُورِ فَمَا
 يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
 كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا

(١) نكسة حُزيران وانتصار إسرائيل على العرب.

وشوقي له على البحر والقافية قصيدة يرثي أمه، يقول:

يَا دَائِحَ الطَّلْحِ أَشْبَاهَ عَوَادِينَا نَأْسَى لِمَسْرَاكَ أَوْ تَأْسَى لِنِسْرِينَا
كُنْزُ بَحْلَوَانَ عِنْدَ اللَّهِ نَطْلُبُهُ خَيْرَ الْوَدَاعِ لِحَيْرِ الْمُحِبِّينَا

لأنها مدفونة بخلوان البلد القريبة من القاهرة، يقصد: والدته.

ويقول ابن خميس:

وَكَانَ صَوْتُ الْفَرَاقِيَّاتِ نَسْمَعُهُ فَلَا نُحْسِبُ بُكَاءَ مِنْهُ يُبْكِينَا
حَتَّى أَصَاحَ لِسَانُ الدَّهْرِ مُلْتَجِحًا أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا

وأحدهم أندلسي يقول:

إِنَّ السَّلَامَ وَإِنْ أَهْدَاهُ مُرْسِلُهُ وَزَادَهُ رُونَقاً مِنْهُ وَتَحْسِينَا
لَمْ يَبْلُغِ الْعُشْرَ مِنْ قَوْلٍ يُبْلِغُهُ أذُنَ الْأَحِبَّةِ أَفْوَاهُ الْمُحِبِّينَا

وقال آخر:

أَخِيئْتُمْ وَذَا عَلَى حُبِّ الْإِلَهِ وَمَا كَانَ الْحُطَامُ شَرِيكاً فِي تَأْخِينَا
شُكْرًا زَبِيدٌ فَقَدْ أَهْدَيْتِ مَا عَجَزَتْ عَنْ مِثْلِهِ فِي الْوَرَى رُومًا وَبَرْلِينَا

والناس ينظمون على هذا البحر؛ لأنه خفيف ولأنه معجب ومُطَرَّب.

ويقول الطنطاوي: ومن أحسن الأبيات والقصائد ما قال الشهرزوري أحد

العلماء الأدباء، وهي جميلة وأخاذة يقول:

لَمَعَتْ نَارُهُمْ ^(١) وَقَدْ عَسَعَسَ اللَّيْلُ وَمَلَّ الْحَالُ بِي وَحَارَ الدَّلِيلُ

(١) أي: ذهب إلى من يُجِب.



فَتَأْمَنْتُهَا وَفِكْرِي مِنَ الْبَيْنِ عَلِيلٌ وَطَرْفُ عَيْنِي كَلِيلٌ
وَقُوَادِي ذَاكَ الْفُؤَادُ الْمُعْنَى وَغَرَامِي ذَاكَ الْغُرَامُ الدَّخِيلُ

وهي تُسمى: لمعة نارهم. وهي جميلة على كل حال، والشهرزوري يقول:

وَاللَّهِ مَا جِئْتُكُمْ زَائِرًا إِلَّا وَجَدْتُ الْأَرْضَ تَطْوَى لِي
وَلَا انْتَنَى قَلْبِي عَنْ بَابِكُمْ إِلَّا تَعَدَّدْتُ بِأَذْيَالِي

وله بيتان جميلان يقول فيهما:

مَرِضَ الْحَبِيبُ فَزُرْتُهُ فَهَرَضْتُ مِنْ خَوْفِي عَلَيْهِ
وَأَتَى الْحَبِيبُ يَزُورُنِي فَشَفَيْتُ مِنْ نَظْرِي إِلَيْهِ

هذا من أجملها، فيقول: مرض الحبيب فعدته ومرضت؛ إشفاقاً عليه فلما زارني تشافيت بإذن الله.

وأما في العذريات فقصيدة: يا ظبية البان. وهي للشريف الرضي وأحسن قصيدة له على الإطلاق، والشريف الرضي يصل إلى درجة المتنبي في النسب والمدح والفخر، لكن لا يصل إلى درجة المتنبي في الحكمة، يقول:

يَا ظَبِيَّةَ الْبَانَ تَرَعَى فِي حَمَائِلِهِ لِيَهْنِكَ الْيَوْمَ أَنَّ الْقَلْبَ مَرَعَاكِ
الْمَاءُ عِنْدَكَ مَبْدُولٌ لِشَارِبِهِ وَكَيْسَ يَهْنِكَ إِلَّا مَدْمَعِي الْبَاكِ
هَبَّتْ لَنَا مِنْ رِيَّاحِ الْغُورِ رَائِحَةٌ بَعْدَ الرَّقَادِ عَرَفْنَاهَا بِرِيَّاكِ
كُنَّا انْتِنَيْنَا إِذَا مَا هَرْنَا طَرْبَ عَلَى الرَّحَالِ تَعَلَّنَا بِدَنْكِرَاكِ
سَهْمٌ أَصَابَ وَرَامِيهِ بِدِي سَلَمٍ مَنْ بِالْعِرَاقِ لَقَدْ أَبْعَدَتْ مَرْمَاكِ
كَأَنَّ عَيْنَيْكَ يَوْمَ الْجَزَعِ تُخْبِرُنَا عَنِ الْمُحِبِّينَ مِنْ أَسْمَاءِ قَتَلَاكِ

فقال هذه القصيدة وعارضه من المعاصرين الشاعر الأديب الكبير حمزة شحاتة بكافية على البحر والقافية، وهي جميلة، لكن تبقى (يا ضبية البان) هي المتمكنة في هذا الباب وتعد من أوائل القصائد.

وقيل: يُنسب إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وقيل: لوالده يزيد قصيدة يقول

فيها:

وَلَمَّا تَلَقَيْنَا وَجَدْتُ بِنَانَهَا	مُخَضَّبَةً تَحْكِي عَصَاةَ عِنْدِمِ
فَقُلْتُ: خَضِبِ الْكَفَّ بَعْدِي أَهْكَدَا	يَكُونُ جَزَاءَ الْمُسْتَهَامِ الْمُتَمِّمِ
فَقَالَتْ وَأَبَدْتُ فِي الْحَشَا حُرُقَ الْجَوَا	مَقَالَةً مَنْ فِي الْقَوْلِ لَمْ يَتَلَعَّمِ
وَحَقِّكَ مَا هَذَا خِضَابٌ عَرَفْتُهُ	فَلَا تَكُنْ بِالْبُهْتَانِ وَالزُّورِ مُتَهَمِي
وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُكَ رَاحِلًا	وَقَدْ كُنْتُ لِي كَفِي وَزَنْدِي وَمَعْصَمِي
بَكَيْتُ دَمًا يَوْمَ النَّوَى فَخَضِبْتُهُ	بِكَفِّي فَابْتَلْتُ بِنَانِي مِنْ دَمِي
فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً	بِسُعْدَى شَفِيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدِمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ	بُكَاهَا، فُقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

هذا من أجملها على كل حال.

ونعود إلى مسألة الحب وأحسن الحب هو ما صُرف في طاعة المولى ﷺ، فالله ﷻ ذكر الحب وأن أولياءه أشد حبا لله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: 165]. فهم أشد حبا من أهل الأوثان لأوثانهم وأهل الأصنام لأصنامهم وأهل المنصب لمناصبهم وأهل المال لمالهم؛ لأن أحباب الله ﷻ صرفوا أعمارهم في خدمة أعظم محبوب وهو الله ﷻ، ومفاتيح محبته ﷻ كثيرة من أعظمها وأجلها: ذِكْرُهُ ﷻ، وتسيبته آناء

الليل وأطراف النهار، وتلاوة كتابه، والسهر مع ذكره في الثلث الأخير من الليل، ومناجاته في السجود وفي السُّحُر. هذه من العلامات الكبرى على حب الله ﷻ.

ومن علامات الحب أنك تطيع من تحب، فيقول بعضهم:

تَعَصَى الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَطْهَرُ حُبَّهُ! هَذَا - لِعُمْرِي - فِي الْفِيَّاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فَيُتَلَى هَذَا بِهَذَا وَلَكِنَّ الَّذِينَ أَخْطَوْا فِي الْحُبِّ أَخْطَوْا فِي مَسْأَلَةِ حُبِّهِمْ مَا لَا يَجِلُّ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْحُبَّ الطَّبِيعِيَّ فِي الْإِسْلَامِ حُبُّ الزَّوْجَةِ، وَحُبُّ الْعِظْمَةِ وَالِدَيْنِ لِلَّهِ ﷻ، وَكَذَا مِنَ الْحُبِّ الطَّبِيعِيِّ حُبُّ الْإِبْنَةِ وَالْأَخْتِ وَالْأُمِّ وَالْوَالِدِ وَهَكَذَا، حُبُّ فِي اللَّهِ ﷻ، لَكِنْ إِذَا صُرِفَ فِي مَحْرَمٍ وَقَفَ الشَّرْعُ مَانِعًا مِنْ ذَلِكَ وَنَهَى عَنْ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءِ عَلَى هَذَا الْإِنْحِرَافِ، مِثْلُ: جَرِيرِ الَّذِي يَقُولُ:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا نَمًّا لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
يَصْرَعُنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حِرَاكَ بِهِ وَهِنَّ أضعْفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا

وغيرهم مثل عروة بن حزام يقول:

جَعَلْتُ لِعَرَافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَافٍ نَجِدُ إِنْ هُمَا شَفِيَانِي
فَوَاللَّهِ مَا مِنْ رُقِيَّةٍ يَعْلَمُانَهَا وَلَا شَرِيَّةٍ إِلَّا بِهَا سَقِيَانِي
فَقَالَا: شَفَاكَ اللَّهُ، وَاللَّهِ مَا لَنَا بِمَكْنُونِ مَا تَحْوَى الضُّلُوعِ يَدَانِ

فهم ساروا على هذا يصفون حياتهم فقط بهذه المعاني، ولم يقدموا رسالة لله.

ويقال: إن المهندسين والعمال والمخترعين والمكتشفين لا يعيشون. لأنهم ليس عندهم وقت لل فراغ والضياع؛ فهم مشغولون بالبناء والتعمير والاكتشاف

والاختراع، أما الخالي فهو يقع في العشق والحب؛ الحب اللاهني؛ لأن الخالي يسمع الشعر ويداعبه الخيال وتجره الأوهام والعواطف، أما الكادح فهو مشغول أمامه أمور بالعيان، أما هذا فيشتغل بذهنه ولذلك تجد الخالي يتعب؛ فهو لا يجد عملاً فيجرح عقله ذات اليمين وذات الشمال، ولذلك يوصى الموسوس والمهموم ومن عنده قلق واضطراب نفسي أن يعمل. والصينيون عندهم حدائق العمل في مصحاتهم النفسية، فإذا جاءهم الإنسان يشكو من مرض الوهم والاضطراب أعطوه المسحاة يُعَدِّلُ الماء ويُصَلِّحُ الأشجار، فما يمر عليه شهر إلا وقد تعافى، ولذلك تجد العمال والمهرة والبنائين ليس عندهم قلق ولا اضطراب، لأنهم يعملون ومشغولون بالعمل وأذهانهم منصبة على هذا العمل، فإذا انتهوا من العمل زارهم النوم فاستقبلوه بنفس مرتاحة طيبة رضية.

إِذَا عَلِمَ هَذَا فَإِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَدْرُسَ مَعَانِي الْحُبِّ الَّتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ وَسَنَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، إِذْ يَقُولُ ﷺ: «فَلَا تَمَنْ كُنْ فِيهِ وَجَدَ بَيْنَهُ خِلَافَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُضَدَّفَ فِي النَّارِ». وفي حديث قدسي في البخاري يقول ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِأَحَبِّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ...» الحديث. فدل على أن الله يحب أوليائه، وأوليائه يحبونه إذا حققوا الولاية، كل بحسبه؛ لأنه قد يجتمع في الإنسان مع أسباب الحب أسباب البغض.

نعود إلى المحبة، يقول أحد الأندلسيين من الشعراء، كما ذكر ابن رشيقي:

شَكَأَ أَلَمَ الضَّرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي وَرُوعَ بِالنَّوَى حَيٌّ وَمَيِّتٌ
وَأَمَّا مِثْلَ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي فَإِنِّي مَا سَمِعْتُ وَلَا رَأَيْتُ

فكلُّ يشكو تباريحه، حتى إنَّ المحدث الأديب العالمي المفتي الأندلسي ابن
حزم الظاهري ألف طوق الحمامة في هذه المعاني وجاء بالهجر والوصل والقطيعة
والتعزز والمراسلة ومسألة الرقيب والعذل، ونحو ذلك.



الجلوس الصالح

الجلوس الصالح مُنِيَّةٌ مَنْ يَتَمَنَّى، وهو مطلب لكن يَعْزُّ وجوده برغم كثرة من يجلس مع الإنسان، إذ يجعلون شروطاً في الجلوس الصالح: أن يكون ظاهره وباطنه سواء، وأن يكون وافياً لك في الغيب والمشهد، وألا يؤذيك في الجلوس. حتى يقول ابن عباس، وهو من خيرة كلامه: «وَاللَّهِ مَا أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ جَلِيسِي، وَكَلِمَاتِي أَسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْضِرَ الذُّبَابَ عَنْهُ لَفَعَلْتُ». وقالوا: إن عمرو بن العاص رضي الله عنه من وفائه وأصالته كان يُكرم جلسيه إكراماً عظيماً، وقال: «رَجُلٌ تَخَطَّى النَّاسَ إِلَيَّ

وَجَلَسَ فِي مَجْلِسِي أَلَا يَكُونُ أَعَزُّ النَّاسِ عَلَيَّ». فهم يتبارون في خدمة المجلس الصالح؛ لأن الجالس الصالح هبة من الله يعينك على طاعة الله ويقربك من معالي الأمور، ويحفظك من مجلسك وإذا رآك أخطأت واغتبت ردك بلطف، تجد عنده من الفائدة ومن الرأي السديد ما الله به عليم.

فهذا المسعر بن كدام أحد المحدثين الأولياء وكان عنده جلاس، يقول: اشترط عليهم ثلاثاً: ألا ينقلوا خبراً عن إنسان، وألا يفتابوا أحداً، ولا يكذبوا.

فيقول ابن المبارك:

مَنْ كَانَ مُتَمَسِّجاً جَلِيساً صَالِحاً فَلَيَأْتِ حَلْقَةَ مِسْعَرِ بْنِ كِدَامِ
فِيهَا الْمَوَدَّةُ وَالْكَمَالُ وَأَهْلُهَا أَهْلُ الْوَقَارِ وَخَيْرَةُ الْأَقْوَامِ

يقول: إن كنت تريد جليساً صالحاً يساعذك على طاعة الله والمعرفة، وتستفيد علماً نافعاً فاهلم إلى حلقة مسعر بن كدام تجد فيها ما يسرك. وابن المبارك له بعض الحكم، فيقول:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمًا أَتَيْتِ حَمَادَ بْنَ زَيْدِ

حماد بن زيد محدث كبير من درجة الإمام مالك بن أنس، اسمه حماد بن زيد بن درهم، وآخر اسمه حماد بن سلمة بن دينار، فقيل لأحد العلماء: أيهما أفضل؟ قال: كما بينهما في الصرف؛ لأن الدينار بعشرة دراهم، ذاك حماد بن سلمة بن دينار أفضل في العبادة والولاية، وإلا فحماد بن زيد أوثق منه في الحديث والرواية، وكلاهما عالمان جليلان كبيران، فيقول ابن المبارك:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمًا أَتَيْتِ حَمَادَ بْنَ زَيْدِ
فَأَسْتَفِيدُ عِلْمًا كَثِيرًا ثُمَّ قَبِيضُهُ بِقَيْدِ
وَأَتَرَكُوا الْبِنْدَةَ مِنْ آتَارِ عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدِ

عمرو بن عبيد معتزلي له آراء مخالفة للحق وللكتاب والسنة.

فيقول: إذا بحثت عن إنسان، فابحث عن إنسان تستفيد منه، وينفعك ويدلك على الخير وعلى معالي الأمور. وأبو تمام يصف أحداً، يقولون: يصف المعتصم، والله أعلم. فيقول:

وتراه يصغي للحديث بقلبه وبِسْمَعِهِ وَكَلَمُهُ أَدْرَى بِهِ

يقول: من حسن جلوسه مع الناس أنه يصغي للقصة وربما سمعها. فبعض الناس لطيف تقص عليه القصة وقد سمعها عشرين مرة فيقول: ما شاء الله عَجَبٌ. وهو عارف بها لكن من حسن أخلاقه. وبعضهم إذا بدأت بالقصة يقطع عليك الحديث ويقول: سمعنا به أكثر من مرة، أو من ثلاثين مرة. وإذا حدثته بقصة قال: أعرفها. وإذا قلت له بيتاً قال: حفظته وأنا في الابتدائية. فلا يترك تشارك أبداً ويستولي على المجلس، فهو يخبرك؛ قال وخرج ودخل وقام وقعد وقرأ ونشر وكتب، أخبار فقط وهذا يُسمى الثقيل، حتى يقول الشافعي إذا رأى ثقيلاً: ربنا اكشف عنا العذاب إنا موقنون. وقال الشافعي: والله إن المجلس يمج الثقيل؛ لأن الأرض تميل في جهته.

ويقولون: إن ابن تيمية كان إذا رأى ثقيلاً قال: هذه حمى الربع. وحمى الربع حمى تأخذ ربع الجسم.

وقيل لابن المبارك: من هم الثقلاء؟ قال: المبتدعة. وقيل لأحدهم: من هم الثقلاء؟ قال: السفلة الذين يأكلون الدنيا بالدين. وغير ذلك، حتى يقول أحد الشعراء:

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَعْضَبْتَهُ كَأَنَّ الْجِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ

يقصد بالإنسان: الجليس. لأن بعض الناس آتاه الله ^{بخلق} خلقاً؛ إن يصدر عنك يغفر الزلة، أي: يتغافل ويتغابي، كأنه ما سمع شيئاً. حتى يقول أبو تمام:

لَيْسَ الْغَيْبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فليس الغبي السيد، بل المتغاضي هو الذكي، التغافل عن هفوات الجليس هو من أحسن ما يكون، ولذلك تجد العقلاء والوجهاء والدهاة الذين أكل عليهم الدهر وشرب يسمع أحدهم بعض الكلام ويسكت كأنه ما بلغه شيء ويدفن الموضوع، فيقول: ما حصل بأس، وكل شيء على ما يُرام. تمشي الأمور فيكسب العفو والحب والصفح والله يؤيده ﷻ. أما من يحاسب كل الناس على كل حال، فلا يبقى له صديق، يقول أحدهم لصديقه:

كَأَنَّكَ فِي الْكِتَابِ وَجَدْتِ لَاءَ مُحَرَّمَةً عَلَيْكَ فَلَا تَحِلُّ

يقول: ما تقول: لا. إلا في لا إله إلا الله. يعني هذا من كرمه.

إِذَا حَلَّ الشِّتَاءُ فَأَنْتِ شَمْسٌ وَإِنْ حَلَّ الْمَصِيفُ فَأَنْتِ ظِلٌّ

يقول: أنت في الشتاء مثل الشمس بدفتها علينا، وفي الصيف مثل الظل نستظل به. فبعض الأصدقاء هكذا، فبعضهم إذا دخلت عليه سلاك من الهموم وخفف عنك، وإذا ذكرت له مشكلة قال: لا عليك، إن مع العسر يسراً، ماذا تطلب؟ أنا معك أذهب معك سوية وعرضي دون عرضك وجاهي جاهك، والأمور يسيرة وأنا وجدت لك حلاً. وبعضهم إذا حضرت قال: حسبي الله، يا أخي، من ورطة إلى ورطة، هذه مشكلة ما لها حل ولا لها ربط. فيزيديك همماً إلى غم، ومثل هذا ينبغي ألا يخالط.

يقول زهير بن أبي سلمى في جلساء آل هرم بن سنان وكانوا يجلسون في مجالسهم ولا ينطقون بالفحشاء ولا بالعوراء:

قَوْمٌ أَبَوْهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِأَبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
مُحْسِنُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسْنُوا

الجليس الصالح

ويمدحهم في مجلس آخر، يقول: ما أحسن مجالسهم! بسمة ورضا وتأمر
بالمعروف وكرم، ولا يفتابون أحداً. قال كعب في آل هرم بن سنان:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حَسَنٌ وَجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفَعْلُ
عَلَى مُكْتَرِبِهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَعْتَرِبُهُمْ وَعِنْدَ الْمُقْتَلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَدَلُ

قال: أغنياؤهم يعفون وفقراؤهم يُضَيِّفُونَ، ولا فقير فيهم، فالفقير يدخل عند
الغني والجائع يدخل عند الكريم. كلهم متشاركون فيما أعطاهم الله ﷻ متعاونون
متكاتفون، حتى يقول ﷺ في الأشعريين الذين منهم أبو موسى الأشعري ﷺ لما
وفدوا من اليمن وراهم النبي ﷺ: «نِعْمَ الْوَأَفِدُونَ؛ إِذَا أَرْمَلُوا جَمَعُوا طَعَامَهُمْ
فَأَكَلُوا سَوِيَّةً». أو كما قال ﷺ: «وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مَسَاكِينَ الْأَشْعَرِيِّينَ بِاللَّيْلِ وَأَنَا لَمْ
أَرَهَا بِالنَّهَارِ»؛ من ذويهم بالقرآن بالليل ومنهم أبو موسى ﷺ الذي مر به ﷺ
في المسجد وإذا هو يقرأ وما علم أن الرسول ﷺ في طرف المسجد، وإذا بأبي
موسى الأشعري ﷺ أوتي مزماراً من مزامير آل داود؛ يُوقَفُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَشَى.

يقول أحد الصحابة: سمعت أبا موسى يُصلي المغرب فوالله الذي لا إله إلا هو
ما سمعت نايًا ولا عوداً ولا وترًا أجمل من صوته. فمر ﷺ عند المسجد وإذا بأبي
موسى ﷺ يقرأ وما علم أبو موسى ﷺ، فوقف النبي ﷺ، فوقف النبي ﷺ يسمع أبا موسى يرسل
صوته وأخذ رسول الله ﷺ يرسل دموعه، وفي الصباح لقيه ﷺ قال: «لَوْ رَأَيْتَنِي
يَا أَبَا مُوسَى وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ - وَهُوَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ﷺ - قَالَ يَا رَسُولَ
اللَّهِ إِنَّكَ كُنْتَ تَسْتَمِعُ لِي؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْتَمِعُ لَكَ، لَقَدْ أُوتِيَتْ مِزْمَارًا مِزَامِيرِ
آلِ دَاوُدَ. قَالَ: وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لِي لَحَبَّرْتُهُ لَكَ
تَحْبِيرًا». فيقول: ليتني كنت أعلم بك لكنت رجعتُه وحسنته وجودته ورفعت
وخفضت في هذا الكتاب، لكنني ما كنت أعلم.

تعود إلى آل هرم بن سنان. يقول:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٍ حَسَنًا وَجُوهُهُمْ
عَلَى مُكْتَرِبِهِمْ رِزْقٌ مَن يَعْتَرِبُهُمْ
وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئَةَ إِلَّا وَشِيْجُهُ
جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ
وَأُنْدِيَّةً يَنْتَابُهَا النَّبْلُ وَالْفُضْلُ
وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَدْلُ
تَوَارَتْهُ أَبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَعَارِسِهَا النَّخْلُ؟
وَأَبْلَاهُمْ خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو

فوصفهم بأن عليهم الرضا والسكينة، أي: على وجوههم فإذا أتيتهم رحبوا. أحياناً قلُّ الحجاج وانبساط الوجه وبسمة الفم أحسن من الضيافة، ماذا تريد من إنسان يضيفك وهو مُقْتَبَّبُ الجبين، ويصيح على أبنائه؟ ليس الطعام كل شيء، لكن الإنسان الذي يرحب ويحيي ويسألك عن الأخبار والأمطار والعيال والأولاد، فتجده كأنه يهدي لك الحياة، حتى يقول أحدهم:

أَحَادِثُ ضَيْفِي قَبْلَ أَنْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَكَانُ جَدِيبُ

فتجده إذا جاء الضيف يقول: يا حياك الله أهلاً وسهلاً، بارك الله فيكم، تفضلتم علينا بهذه الزيارة. هذا هو المؤمن الكريم وتجده يتحدث معه ويؤانسه، حتى إنهم يقولون: إن أحد الكرماء كان يسهر مع ضيوفه. حتى يقول فيه أحد الشعراء:

مُتَيْمٌ بِاللَّيْلِ لَوْ قَالَ وَافِدُهُ: هَبْ لِي - فُدَيْتَ - كَرَى عَيْنِيكَ لَمْ يَمِمْ

يقول: هو عاشق للندى ومصاب بمسألة الكرم والسخاء. والوافد: هو الضيف. فلوقال له الضيف: أعطني النوم الذي في عينيك. لقال: تفضل، خذ النوم. فهو يكرمه ويسهر معه ويؤانسه ويكون معه في وقته كله، حتى يرتحل عنه الضيف، هذا هو الجليس الصالح.

الجليس الجائع

حسان رضي الله عنه لما ذهب عند آل جفنة بن مارية من الغساسنة مدحهم وتأثر
بمجالسهم، حتى بعد الإسلام حن إلى تلك المجالس من الوفاء، وقد كانوا في
دمشق من ملوك غسان، فقال فيهم:

لِللّهِ دَرُّ عَصَابَةٍ صَاحَبْتُهُمْ يَوْمًا بِجَلَقٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
أَوْلَادُ جَفْنَةَ حَوَّلَ قَبْرَ أَبِيهِمْ قَبْرَ بِنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضَلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُضْبِلِ

يقول: في مجالسهم هذا ينزل وهذا يطلع وهذا يرحب ويدخل، وهذا يدخل
وهذا يمشي، مفتوحة الأبواب، حتى إن الكلاب تعبت عند الباب من النبح. بسبب
كثرة الوافدين، فسكت لأنها أنست بالناس، وإذا أقبل الإنسان من هناك لا
يقولون: مَنْ؟ فلا تحقيق عند الباب؛ لأن بعض الناس يضع رسداً عند بابه ﴿وَأَنَّا
لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلَأَتْ حَرَمًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ [الجن: ٨]. أولاده وعنده حارس
عند الباب يقول لكل من يأتي: لماذا أتيت في هذا الوقت؟ وماذا تريد من الوالد؟
أعطنا اسمك ورقمك، ثم فيما بعد نتصل بك. أما بعضهم فمشرع الأبواب، حتى
يقول في مثل هذا ابن صلاح:

امل الوجار واخل الباب مفتوح خوف المسير يستحي ما ينادي
يا نمر ما في صكة الباب مصلوح ولا خير فيها يا مظنة فؤادي
تصلح الرجال الليبي يشتري الروح والا فعليه ولا يعتمدها اعتمادي
رجال تقصيره مع الناس مسموح لاجل إن ماله في القديمة شداد

ما سبق له أن ضيِّفَ ولا ضيِّفَ أبوه ولا ضيِّفَ جده فهو معذور، حتى لو قصر
قالوا: معذور. أي: يسامحونه. لكن الرجل الشهم المَجْرَّبُ في المواقف، فيقولون:
أنت فلان وتفضل هذا!



كان عمر رضي الله عنه يخطب على المنبر يوم الجمعة وهو خليفة وأمير المؤمنين وفي أثناء ما يخطب وإذا بعثمان بن عفان رضي الله عنه وهو من العشرة المبشرين بالجنة وثالث الخلفاء الراشدين، يأتي في وقت الخطبة ويدخل المسجد وهو واقف، فقطع عمر الخطبة والناس جلوس وعلماء الصحابة رضي الله عنهم شهداء الصحابة كبار الصحابة، فقال عمر لعثمان: «أَدَاتِي فِي هَذَا الْوَقْتِ ۝۱۹. فَقَالَ عُثْمَانُ رضي الله عنه: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ الْجُمُعَةُ إِلَّا الْآنَ فَتَوَضَّأْتُ فَأَتَيْتُ. قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: وَالْوُضُوءُ أَيْضاً ۝۱۹ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَأْمُرُنَا. فَصَلَّى». فدل على أن الغسل مُستحب وليس واجباً؛ لأنه لو كان واجباً لعاب على عثمان رضي الله عنه تركه، وهذا في قول الجمهور، الشاهد أنه يصعب على الناس إذا كان الرجل ذا مكانة، ثم رأوه قصر في الواجب قالوا: كيف تفعل وأنت كذا؟ مثل الطالب المجد الممتاز المجد في الفصل إذا نام أو لم يحل الواجب تقول: سبحان الله! أنت تفعل كذا؟ أما البليد الكسول فتقول: له سوابق فلا يؤخذ عليه مثل ما يؤخذ على الثاني.

لكن أحسن جليس هو الكتاب، وكما يقول أبو الطيب المتبني:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرُجٌ سَابِحٌ

أي: ظهر الفرس. لأن فيه المجد والشرف والسؤدد.

وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ

وكان السلف والأخيار يجلسون مع الكتاب، وكان ابن المبارك له كتب يضعها عن اليمين وعن الشمال كتب الحديث والفقه والتفسير، ويقول أحدهم في الكتب:

لَنَا جُلُوسَاءٌ لَا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ أَلْبَاءُ مَا أُمُونُونَ غَيْباً وَمَشْهُدَاً

فإنهم وهم حضور نحبهم وهم غياب نأمنهم على أسرارنا، ولا يقتابون وهي الكتب، تدخل مكتبتك وتقرأ ما شئت وتطلب الكتاب ولا يغتابك ولا يؤذيك ولا ينقل عنك سرّاً لا يتعرض لك ولا يثقل عليك، ولكن من يعرف هذه الأمور؟

البايس الجوالع

جلس أحد الشعراء مع أصدقائه، فأنشروا في المجلس، قالوا: صف لنا هذا المكان. قال:

وَلَمَّا جَلَسْنَا مَجْلِسًا طَلَّهُ النَّدَى جَمِيلاً وَبُسْتَانًا مِّنَ الرُّوْضِ نَادِيًا
أَدَارَ لَنَا طَيْبُ الْحَدِيثِ وَحُسْنُهُ مَنَى فَتَمَنَّيْنَا فَكُنْتَ الْأَمَانِيَا

يقول: تمنينا ونحن جلوس، فكنت أنت الأمنية، تمنينا لو أنك معنا.

ولذلك قال عمر للصحابه رضي الله عنه وهم جلوس وأبو عبيدة رضي الله عنه في الشام يُقاتل ويجاهد مع الجيوش ويفتح الدنيا بلا إله إلا الله، قال: «تَمَنُّوا». فتمنى أحدهم الشهادة في سبيل الله، والثاني العفو والعافية، والثالث العلم النافع، والرابع الذرية الطيبة، فقال عمر رضي الله عنه: «لَكِنِّي أَتَمَنَّى مِلءَ هَذِهِ الْعُرْفَةِ رِجَالًا مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ عَامِرِ بْنِ الْجُرَاحِ». فقط أن تمتلئ هذه العرفة بأمثال أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه.

ولما ذهب عمر يفتح بيت المقدس لقيه أبو عبيدة مع الجيوش فسلم عليه، ولما أتى الليل قال أبو عبيدة رضي الله عنه: «تَعَالَى يَا عُمَرُ، تَتَبَاكِي أَنَا وَأَنْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى مَا فَرَطْنَا فِي جَنْبِ اللَّهِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم». وهم كانوا أوفياء رضي الله عنهم.



oboeikendi.com

الحكمة

الحكمة وكيف نطق الشعراء والأدباء
بالحكمة ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وهي السداد
في القول والعمل، وإذا ذكرت في القرآن فهي
السنة، ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا
خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]. أي: السنة. لكن إذا أُطلقت
فالمقصود بها السداد والصواب والاستقامة في
كل الأمور، قال ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ
مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً». فالشاعر ينطق بالحكمة.

ولذلك تبارى الشعراء في أن يسطر كل واحد منهم تجاربه في بيت أو بيتين، حتى إن أحدهم يختصر حياة عشرين سنة أو ثلاثين سنة في بيت، فإذا فهمت هذا البيت وطبقته في حياتك استغنيت عن مجلدات من التجارب ولم تحتج إلى أن تعيش التجربة نفسها، يقول أحد الشعراء:

وَمَنْ كَمَلَتْ فِيهِ النَّهْيَ لَا يَسُرُّهُ نَعِيمٌ وَلَا يَرْتَاغُ لِلْحَدَثَانِ

هذه حكمة وهذا البيت من أحسن ما يكون، يقول: إن الإنسان العاقل إذا كمل عقله ونضج ما عاد يفرح بإقبال الدنيا، ولا يأسى على إدارها ومصائبها، إذ انتهى إلى قناعة بأن زائرون مُنتَهون مرتحلون، وأن السعادة في جوار رب العالمين ﷻ. ولذلك على هذه القصيدة - لما أعجبنى هذا البيت - نظمت:

سَلَا الْقَلْبُ عَنْ غَيْدِ صَفْتٍ وَحِسَانٍ وَأَهْمَلْ ذِكْرَ الْمُنْحَسَى وَعُمَانٍ
وَمَا عَادَ يُلْهِمُنَا الصَّبَا بِأَرِيحِهِ وَلَوْ فَاحَ بِالرِّيْحَانِ وَالنَّفْلَانِ
وَخَطَّ بِرَأْسِي الشَّيْبُ لَوْحَةَ عَاشِقٍ يَقُولُ: اخْذُرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلَانِ
شَرَبْنَا لِيَالِي الصَّفْوِ فِي كَأْسِ غَفْلَةٍ وَجَاوَزْتُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ كَمَانِي
فَمَرَّتْ كَأَحْلَامِ الرَّبِيعِ سَرِيعَةً فَأَيَّامُهَا فِي نَاطِرِي نَوَانِ
فَلَوْ أَنَّني أُرْمَى بِقَوْسٍ دَفَعْتُهُ بِحِدَّةِ قَلْبٍ وَأَخْتِدَامِ جِنَانِي
وَلَكِنِ قَوْسَ الْعُمْرِ يُمَكِّنُ أَسْهُمًا وَمَا لِلْفَتَى فِي رَدِّهِنَّ يَدَانِ
فِي أَرْبَعِينَ الْعُمْرَ وَعَظْ وَعِبْرَةَ وَيَكْفِيكَ عِلْمًا شَاهِدُ الرَّجْفَانِ
فَلَا تَسْمِعْنِي وَعَظْ قُسٍ وَلَا تَسْقُ عَلَيَّ مَقَامَاتِ الْفَتَى الْهَمْدَانِي
فَعِنْدِي مِنَ الْأَيَّامِ أَبْلَغُ عِبْرَةَ عَلَى مِنْبَرٍ تُلْقَى بِكُلِّ لِسَانِي
وَلَمَّا اتَّخَذْتُ الْعِلْمَ حِدْنًا وَصَاحِبًا تَرَكْتُ الْهَوَى وَالْمَالَ يَنْتَحِبَانِ
جَعَلْتُ الْقَوَافِي الصَّافِيَاتِ مَرَاجِي كَأَنَّ الضَّحَى وَاللَّيْلُ قَدْ حَسَدَانِي

فَلَا تُرِكَ الدُّنْيَا بِلَهْوٍ فَإِنَّهُ
فَقَدْ هَدَقْدَمَا عَرْشَ بَلْقَيْسٍ هُدُودُ
وَجِدِّي أُوَيْسُ الْأَزْدِ أَفْضَلُ تَابِعِ
فَلَا تَحْسَبِ الْأَنْسَابَ تُنَجِّيكِ مِنْ لُطَى
أَبُو لَهَبٍ فِي النَّارِ وَهُوَ ابْنُ هَاشِمِ
يُعَاقُ مَسِيرُ الشَّمْسِ بِالدَّبْرَانِ
وَحَرْبُ فَارِ مَأْبَى الْيَمَانِ
عَلَى صَدَقِ قَوْلِي يَشْهَدُ الْقَمْرَانِ
وَلَوْ كُنْتِ مِنْ قَيْسٍ وَعَبْدِ مَدَانِ
وَسَلْمَانَ فِي الْفِرْزُوسِ مِنْ خُرْسَانَ

وعلى هذا البحر للمتنبّي قصيدة من أروع قصائده، يقول الواحدي الذي شرح ديوانه: هذا والله هو المدح، ما مَدِحَ ملك بمثل هذا المدح. مدح بها كافورًا يقول:

عَدُوُّكَ مَدْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ
وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي عُدَاكَ وَإِنَّمَا
بِرَعْمِ شَبِيبِ فَارِقِ السَّيْفِ كَفَّهُ
وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمْرَانِ
كَلَامُ الْوَرَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَدْيَانِ
وَكَأَنَّا عَدَى الْعِلَالِ يَصْطَحِبَانِ

لأن شبيباً قاتل كافورًا، ثم سقط، إذ أُغْمِيَ عليه، فوقع السيف منه، فقتل.

كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ
لَأَنَّ شَبِيبًا قَيْسِي وَالسَّيْفِ يَمَانِي.
فَقَضَى اللَّهُ يَا كَافُورُ أَنَّكَ أَوْلُ
وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يُرَى لَكَ دَانَ

إلى آخرها، والقصائد هذه من أجمل ما يكون.

يقولون: إن الأمور السلمي ضاع له ابن وهو ابن وحيد، فبكى وبكى، حتى بكى بعينه الثانية، كان بعين واحدة وعينه الثانية العمياء بكى بها، فقال:

بَكَيْتُ بِعَيْنٍ لَيْسَ فِيهَا غَضَاضَةٌ
وَعَيْنٌ بِهَا رَيْبٌ مِنَ الْحَدَدَانِ

يقول: حتى الثانية بكت معها.

عَذِيرِكَ يَا عَيْنِي الصَّحِيحَةَ، وَالْبُكَاءَ
فَمَا لَكَ يَا عَمْرُوءَ وَالْهَمَلَانَ
شاركت فيه من شدة المصاب.

والحطية سجل بيننا في التاريخ يُعد من الشوارد، يقول - لما هجا الزبرقان -:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ
لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
ثوابك عند الله ﷻ سواء كافأك الناس أو لا. كن أنت البار وكن أنت المحسن،
لا تُسئ أبداً، فإن الله سوف يثيبك إذا لم حفظ جميلك أحد.

فَكَانَ ﷻ إِذَا جَاءَهُ الْخَبْرُ قَالَ:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا
وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ
يقول: سوف تظهر لك الليالي، وسوف تبين لك علومًا، وسوف يأتيك أناس
بأخبار وأنت ما طلبت منهم هذه الأخبار، لكن هكذا شيمة الأيام.

ومن أحسن القصائد وأشهرها قصيدة أبي تمام، يوم هنا المعتصم بفتح
عمورية، قال:

فَتُحُّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ
وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَدْوَابِهَا الْقُشْبِ

يقول أبو تمام: إن نصرك هذا تفتح له أبواب السماء. وذلك لما ضربت امرأة
في عمورية، وقالت: وامعتصماه! وأقسم بالله لينصرنها وسار بالجيش فقال له
المنجمون: لا تذهب؛ لأن البرج في العقرب، والعقرب إذا قاتل فيه الإنسان ينهزم.
قال: آمنت بالله وكفرت بعلم نجومكم هذا. فهزئ أبو تمام بالمنجمين، وقال:

أَيْنَ الدَّرَايَةِ بَلْ أَيْنَ الرَّوَايَةِ؟ كَمْ
صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
يَقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَائِبَةٌ
مَا كَانَ مُنْقَلِبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ
لَوْ بَيَّنَّتْ قَطُّ أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ
لَمْ تُخَفِ مَا حَلَّ بِالْأَصْلَابِ وَالنُّصْبِ

فَالنُّصْرُ فِي شُهْبِ الْأَزْمَاحِ لِامْعَةِ
 خَلِيفَةَ اللَّهِ، جَازَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ
 بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
 إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمِ
 قَبَيْنِ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نُصِرْتَ بِهَا
 بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لِأَفِي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ
 جَرُّوْمَةَ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ وَالنَّسَبِ
 تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ
 مَوْصُولَةٍ أَوْ دِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ
 وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرِ أَقْرَبِ النَّسَبِ
 إِلَى أَنْ يَقُولَ:

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمِ
 لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَغِبِ
 وَهِيَ سَبْعُونَ بَيْتًا أَعْطَاهُ عَلَى كُلِّ بَيْتٍ أَلْفَ دِينَارٍ، مِيلِغٌ ضَخْمٌ يَسْتَحِقُّهُ، وَأُولَاهَا
 قَوْلُهُ - وَهَذِهِ الْحِكْمَةُ الَّتِي قَصَدْتَ أَنْ أُصَلِّ إِلَيْهَا -:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
 فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
 وَعَارِضُهُ وَسَائِرُهُ عَبْدُ اللَّهِ الْبِرْدُونِيُّ شَاعِرُ الْيَمَنِ الْكَبِيرِ الْمَعَاوِرِ، يَقُولُ:
 مَا أَصْدَقَ السَّيْفِ إِنْ لَمْ يَحْضُرِ الْكُذْبُ
 بِبَيْضِ الصَّفَانِحِ أَهْدَى حِينَ تَطْلُبُهَا
 وَأَقْبَحَ النَّصْرَ نَصْرَ الْأَغْبِيَاءِ بِأَلَا
 مَهَالًا - هُدَيْتَ - أَبَا تَمَامٍ تَسْأَلُنِي
 وَأَكْذَبَ السَّيْفِ إِنْ لَمْ يَصْدُقِ الْغَضْبُ
 أَيْدٍ إِذَا غَلَبَتْ يَغْلُو بِهِ الْعَلْبُ
 فَهَمَّ سَوَى فِهِمْ كَمْ بَاعُوا وَكَمْ كَسَبُوا
 كَيْفَ احْتَفَّتْ بِالْعَيْدِ حَيْفَاءُ وَالنَّقَبُ

أي: إسرائيل، التي جاءت عندنا لماذا غلبتنا؟
 نَادَيْتَ فِي الْجَيْشِ عَمُورِيَّةً اتَّقَدْتُ
 مَاذِي النُّجُومُ فُنَحْنُ السَّبْعَةُ الشُّهْبُ
 حضرت الجيوش وقال: لا نجوم، هذا كلام فارغ، نحن السبعة الشهب، أي:
 جنود المعتصم. إلى آخر ما قال، فالشاهد قول أبي تمام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
 فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ



الكتاب له دور والقلم له دور والسيف له دور، حتى يقول أبو الطيب المتنبّي:

مَنْ اقْتَضَى بِسُورَى الْهِنْدِي حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلِ بِلَمِّ

يقصد السيف.

تَوْهَمَ الْقَوْمُ أَنَّ الْعَجَزَ قَرَّبَنَا وَفِي التَّقَرُّبِ مَا يَدْعُو إِلَى التُّهْمِ

يقول: من يحاول المجد يريد الملك والسؤدد بغير الهندي؛ السيف الأبيض

أجاب كل سؤال عن: هل. فائلاً: لم، لم. ولذا يقول:

لَا يَسْلُمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُّ

في أبيات له، فهنا جاء بهذه الحكمة.

ومن الحكمة قول زهير في ميميته المشهورة وهي المعلقة:

وَمَنْ لَمْ يَذُدَّ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ

وهذا خطأ، بل لا يجوز الظلم ولا العدوان على الناس، لكنه مبدأ الجاهلية،

يقول: عليك أن تبدأ الناس بالظلم؛ كي لا يظلموك ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْتِنُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. لكن

صحيح أن من لم يذد عن حوضه يهدم، مع أن الأولى ألا تظلموا ولا تظلموا؛ فلا

ضرر ولا ضرار، لا تعتد ولا تترك أحداً يعتدي عليك، ومن اعتدى عليك فجزاء

سيئة سيئة مثلها، ومن عفى فأجره على الله.

ويستمر في هذا إلى أن يأتي ابن دريد، فيقول:

وَأَنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى

يقول: أصل الإنسان ذكرى جميلة بعدما يموت، فسجل لك تاريخاً طيباً، فلا

تعاد الناس ولا تؤذهم، لا تكن مصدر تعاسة لأحد، ولا تسبب في إزعاج أحد، كن

محبوباً إذا مُت بيكي عليك الجيران والخلان، سجل لك صفحات ناصعة من البر
ومن فعل الخير، زُر مسكيناً وواسٍ منكوباً، وقف مع الأرملة وواسٍ محروماً؛ كي
تسجل لك أفعالاً حسنة.

ونعود للمتنبي صاحب الحكم؛ فله خمس مئة بيت تدور على أسنة الناس في
الحكمة، يقول:

وَمِنَ الْعِدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ

بعض الأعداء يجعلك أحياناً تتحفر وتهتم ويتسبب في بروزك ومكانتك،
ويجعل لك عطاء فتهمت بنفسك واسمك، وتعرف عيوبك ويكشف لك أخطاءك،
ويدلك على زللِكَ؛ لأنه ينافسك ويحسدك، وبعض الأصدقاء مصدر شقاوة لك،
فبعض الأصدقاء أحياناً يجرك لك الويلات، فتجده أعرف الناس بأسراركَ، حتى
يقول أحدهم:

أَخْبَرَنِي عَنْ عَدُوِّكَ مَرَّةً وَأَخْبَرَنِي صَدِيقُكَ أَلْفَ مَرَّةٍ
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ فَكَانَ أَوْلَىٰ بِإِلْمِ ضَرِّهِ

فتجد الصديق إذا انقلب عليك صار ناراً حارقة؛ لأنه كشف تاريخك وعرف
سجلك كله، صرت أمامه مكشوفاً، ثم نعوذ بالله من الصديق إذا انقلب عدواً،
فإنه النار المحرقة، فانظر الحكمة.

ويقول المتنبي عن الزمان:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا وَعَدَانَهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَدَانَا
وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ هُـ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا
رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ وَلَكِنْ تَكْثُرُ الْإِحْسَانَا



أبيات جميلة بلا شك، فيقول: إن الناس عانوا من الليالي مثلما عانينا ومروا بمثلما مرّ بنا، وتغيرت بهم الأحوال، وأحياناً تأتيك مسرات، لكن فيها كدراً وفيها مزعجات.

كُلَّمَا أَتَيْتَ الزَّمَانَ قَدَاةً رَكِبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاةِ سِنَانًا

يقول: تجد الآن في الغابات أشجاراً للنماء وللخضرة وللبركة وللجمال، ثم يأتي إنسان ويقطعها ويركب فيها رمحاً ويأخذ منها شجراً ويركبها مقبضاً للسياح؛ لكي يطعن بها الناس ويقتل بها البشر. فالإنسان يُخرب الطبيعة - في الغالب - إذا كان شريراً، يحول الخيرات إلى مواد سامة وقاتلة ومواد عدائية للبشر، ولا يريد الإصلاح، يقول **﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾** [٢٠٥] وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ **﴿** [البقرة: ٢٠٥-٢٠٦].

والمتنبي يقول لسيف الدولة:

وَإِنْ تَفُقِ الْأَنْبَاءُ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

يقول: نعلم إنك من آدم وحواء، ولكن أنت أجود منهم - وهذه مبالغة - مثلما أن دم الغزال منه المسك.

ويقول - وهو من أجمل أبياته -:

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِفْسَادُ قَتَالُ

يقول: لو كانت الأمور سهلة لكان كل الناس أجوايد وكلهم شجعان، ولكن الجود يفقر فالجواد والسخي إنما فعل ذلك مغامرة منه، وإلا فليس سهلاً دفع المال، وكذا الشجاعة، فالشجاع فعل ذلك مغامرة منه وإلا فليس سهلاً بذل الأنفس، لأن قبلها يقول:

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ لِمَا يَشُقُّ عَدَى السَّادَاتِ فَعَالٌ

وهو يقول في أول الأبيات وذلك من أجملها:

لَا خَيْلٌ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِذْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

إلى أن يقول:

اسْتَوْجِبِ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمُفْتَخِرٍ فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَلَا دَالٌ

يقول: هذا الزعيم استوجب الأفعال الجميلة والأخلاق الجليلة والمدائح النبيلة؛ لأنه ينفق ماله، والمال إذا أنفقته خفت من الفقر. ولذلك تجد البخيل يحسب ألف حساب وتجده يُعدد دراهمه، يقولون: كان عند بخيل كيس، وكان يُخرج الدراهم قبل النوم فيقبلها ذات اليمين وذات الشمال، ويقول للدراهم: طبت حياً وطبت ميتاً، والله ما تخرج من هذا الكيس إلا إلى القبر. ثم يعيده.

ولذلك قاله عنه ذم البخيل أمية بن خلف: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾^(١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ،^(٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ،^(٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْأُخْطُمَةِ ﴿[الهمزة: ١-٤]. كان ذاك الحسيس الخاسر الذي حارب الدعوة يعدد دراهمه، فخلدها، ومات مذموماً، فذلك المثنبي يقول:

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ



oboeikendi.com

المجد

المجد الذي يتعنى به الشعراء والأدباء هو
انتصار الأمة، وهو رفعة كلمتها وسؤدها وبقاؤها
وانتصارها على سائر الأمم بالحق والعدل والعلم
والمعرفة، وأعظم أمة عرفتها البشرية - بلا تحيُّزٍ
عاطفي - هي أمة الإسلام، ولذلك سار الشعراء
كلُّ يذكر المجد على سبيله؛ فمنهم أبطال
الاستقلال ورموز الفاتحين والمنتصرين، لكن
عبَّروا بقصائد تحفظها الأجيال، ففي العراق لما
طرد المحتل يقول شاعرهم:

فَمَنْ الْمَجِيدِ دَمٌ جُنْدُنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَا

يقول: إنهم طلبوا منا ثمناً والثمن كان الدماء، فتوكلنا على الله ودفعنا دماءنا.

والسوريون لما ضربوا الفرنسيين وطردوهم من بلادهم يوم الجلاء جاء شوقي يبارك لهم هذا الانتصار، فقال:

وَدَمْعٌ لَا يُكْفِكُفُ يَا دِمَشْقُ سَلَامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرْقُ
جَلَاءُ الرُّزْءِ عَنِّ وَصَفِ يَدِيقُ وَمَعْبِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي
وَوَجْهِكَ ضَا حِكِ الْقَسَمَاتِ طَلِقُ دَخَلْتُكَ وَالْأَصِيلُ لَهُ ائْتِلاقُ

إلى أن قال:

بِكُلِّ يَدٍ مُضْرَجَةٍ يُدِيقُ وَبِلِحْرِيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابُ
وَتَعْرِفُ أَنَّهُ صِدْقٌ وَحَقُّ دَمِ الثُّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا

فهذا دل على أنه ينبغي وجود التضحيات لرفع الدين الحق، التضحية بالعلم والجهد وبالوقت والقلم والبيان؛ لتكون الأمة ذات سؤدد، يقول الزبيري:

يَوْمٌ مِنَ النِّصْرِ لَمْ تَصْنَعْ أَشِعَّتُهُ شَمْسُ الضُّحَى بَلْ صَنَعْنَاهُ بِأَيْدِينَا

وهو يعني الانتصار والمجد الذي حازوه والذي أعلنوه، فالأمة إذا كانت أمة سؤدد عرفت أنها أمة مستخلفة، وأمة رسالة في العالم، ولها كيان ولها تاريخ مشرق حرصت على تربية أبنائها على المثل العليا، وعلى أن رموزها وأعظمها محمد ﷺ أقدم القداسات، والخلفاء الراشدون بعده والأئمة الفاتحون والعلماء المجددون والأئمة العدول والولاة المصلحون. صارت أمة بحق تستحق أن يقول لها الشاعر:

يَا أُمَّةَ الْمَجْدِ، قُومِي مَرْقِي الْحُجْبَا
لَا تَذْكُرِينَ صَلاَحَ الدِّينِ سَفْسَطَةَ
وَأشعلي في ليالي دهرِكِ الشُّهْبَا
مِنْ غَيْرِ بَدَلٍ؛ صَلاَحُ الدِّينِ قَدْ ذَهَبَا

لا يكفي فقط أن نجتر الماضي، فالأسلاف أصلحوا وأفلحوا ونجحوا، لكن
ماذا فعلنا نحن؟!

لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ: كَانَ أَبِي
إِذَا فَخَرْتُ بِأَبَاءِ بِهِمْ كَرَمٌ
إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَذَا أَنَا ذَا
نَعَمْ صَدَقْتُ وَلَكِنْ بئسَ مَا وَلَّوْا

بل أرنا من نفسك أنت ابناً، كما يقول الأول:

تَسْنَأُ وَإِنْ كَرَمْتَ أَوَائِلُنَا
تَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا
يَوْمًا عَلَى الْأَجْسَادِ نَتَجَلُّ
وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

قال أبو جعفر المنصور:

تَبْنِي فَوْقَ مَا فَعَلُوا
وَنَفْعَلُ فَوْقَ مَا فَعَلُوا

وهذا هو الابن دائماً يكون أقوى ويحرص على أن يكون أحسن من أبيه ومن
جده بأفعاله الحميدة وبسيرته المجيدة، فهنا يقول:

لَا تَذْكُرِينَ صَلاَحَ الدِّينِ سَفْسَطَةَ
مِنْ غَيْرِ بَدَلٍ؛ صَلاَحُ الدِّينِ قَدْ ذَهَبَا

هو انتهى، لكن أنت جدد وكتب وشر على ما سار عليه الأول.

ومن الأبيات الجميلة في هذا الباب الذي أنشده الناس يوم العدوان الثلاثي،
يوم خرج المصريون يكبرون ويهللون على العدوان الثلاثي الذي تعرضت له
بلادهم وأوطانهم، حتى يقول شاعرهم:

أَخِي إِجَاوَزَ الظَّالِمُونَ الْمَدَى فَحَقَّ الْجِهَادُ وَحَقَّ الْفِدَا
 أَنْتَرَكُوهُمْ يَغْصِبُونَ الْعُرُوبَةَ أَرْضَ الْأَبْوَةِ وَالسُّوْدَا
 فَجَرَدَ حُسَامَكَ مِنْ غَمْدِهِ فَلَيْسَ لَهُ بَعْدُ أَنْ يُغْمَدَا

للسيف موضع وللحوار موضع وللين موضع وللرفق موضع ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِمَاصٌ مِّنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. فالذي يعتدي علينا نرد عدوانه، نحاور من حاورنا، ونسالم من سالمنا، ونحارب من حاربنا، هكذا الإسلام ﴿وَحَرِّمُوا سَبِيحَةَ سَيْتِهِ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وأبو الطيب المتنبى يقول:

فَوْضِعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا مُضْرُكُ وَضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ما قام كيان في العالم ولا دولة في العالم إلا بالقوة وبالمناعة والعزة
 لَا يَسْلُمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ
 فالولايات المتحدة الأمريكية توحدت بالدم، وثورة فرنسا بالدم، وثورة ألمانيا بالدم، والإسلام قام على العدل والإنصاف لكن قام بقوة وعزة وسؤدد، فمن أحب العدل أعطى العدل، ولكن إذا جار وظلم وأراد الاعتداء وأراد الإفساد فما حقه إلا أن يؤدب، فيجب أن يُفَرَّقَ بين هذا وبين هذا، لأن بعضهم ينشر أنه ليس عندنا جهاد ولا سيف وأنا أناس طيبون محبوبون نحب الحوار، وهذا تدجين للأمة؛ نحن أمة عدة وأمة سلام ولكن أمة قوة، وأمة محبة وحوار ولكن أمة سؤدد، وأمة لين وأمة رفق لكن أمة مجد، حتى يقول شاعر المسلمين:

سَدُّوا الرِّمَاحَ الْعَوَالِي عَنِ مَعَالِينَا وَاسْتَشْهِتُوا الْبَيْضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِينَا؟

يعني المسلمين.

البيض: السيوف. قال المعاصر: الأمة الآن تعيش في غوغائية كغناء السيل.

فهو يشيد بمجد الأمة. حتى إن إقبال يشيد بمجد هذه الأمة التي صنعت التاريخ ودخل دينها القارات الست، وقام خطباؤها على منابر الدنيا يصلون يوم الجمعة يخطبون في أصقاع العالم، من سيبيريا إلى الأطلسي إلى سور الصين العظيم، وهم يبشرون بهذا الدين الجديد الذي هو فجر البشرية وهو انتصار وفتح لها، حتى إن محمد إقبال يقول:

نَحْنُ الَّذِينَ اسْتَيْقَظَتْ بِأَذَانِهِمْ دُنْيَا الْخَلِيقَةِ مِنْ تَهَاوِيلِ الْكُرْمِ

يقول: كان الكون نائماً، كان في ليل مطبق، فأذن بلال رضي الله عنه فأذن المؤذنون في العالم فاستيقظ العالم، كان العالم نائماً قبلنا.

حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجْدًا لَجَلَالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصَوْرًا

كان الناس قبل الإسلام يعبدون الأصنام والأوثان ويعبدون البقر والتماسيح، ولهم صور ولهم ألعاب وأوهام، ولهم سحر ولهم شعوذة وإفك وإثم وخرافة وكذب ودجل، فلما بُعث الإسلام بلا إله إلا الله، محمد رسول الله قال:

حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجْدًا لَجَلَالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصَوْرًا

وَمِنَ الَّذِي بَاعَ الْحَيَاةَ رَخِيصَةً وَرَأَى رِضَاكَ أَعَزَّ شَيْءٍ فَاشْتَرَى

وَمِنَ الَّذِي دَكُّوا بِعِزِّهِمْ أَبَابَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ

علي رضي الله عنه لما دخل خيبر قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَسْنَا قَتْلَةً، بُعِثْنَا رَحْمَةً وَهِدَايَةً وَفَتْحًا». فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخذ السيف وقاد الكتيبة والجيش يريد أن يفتح خيبر، والرسول صلى الله عليه وسلم ليس حريصاً على قتل الناس حتى اليهود، قال: «يَا عَلِي، ادْعُهُمْ إِلَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ - فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ». فيقول: قبل أن تبارزهم حاول أن

تدعوهم عسى الله أن يهديهم إلى الحق؛ لأننا نريد هدايتهم، ليس لنا مصلحة في أن يدخل أحد النار، بل مصلحتنا أن يهتدي وأن يدخل الجنة، ليست مصلحتنا في أن يُعذب العالم، بل أن يهتدوا وأن يُرحموا برحمة الله ﷻ. ولذلك كما في صحيح البخاري سمع رسول الله ﷺ أن غلاماً يهودياً كان جاراً له في سكرات الموت، فقال رسول الله ﷺ: «قَوْمُوا بِنَا إِلَيْهِ». يا للوفاء ويا للخلق الجم ويا للتواضع ويا للسجيا الحميدة! فلا يلُمنا أحد في حبه ﷺ وإنا لمعدورون، ولا يعترض علينا أحد من غير المسلمين، فإننا في حبه واتباعه لمأجورون، وإن قوماً أحبوه واتبعوه فإنهم على الحق سائرون، وإن قوماً عشقوا مثله العليا لهم المنصورون عند الله ﷻ. ولذلك قال ﷺ: «قَوْمُوا بِنَا إِلَيْهِ». فَاتُوا فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ رَأْسِ الْغُلَامِ الْيَهُودِيِّ. يهودي على غير الملة، فأخذ ﷺ يدعوه إلى: لا إله إلا الله. قيل أن يموت، قال ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ». ويخبره ﷺ أنه يصدق بما أتى موسى ﷺ: «فَأَلْتَفَتَ الْغُلَامُ فِي سَكْرَاتِ الْمَوْتِ لِأَبِيهِ». يهودي صلت جلف عند أقدامه ليس مسلماً، أي: كيف تُشير علي؟ قال: «أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ». لأن أباه تأثر لأن الرسول ﷺ زاره في البيت وهو سيد الخلق أجمعين، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. فخرج ﷺ يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ». فيا للخلق!

هذا هو المجد.

وبعضهم يصف مجد الأمة وبعضهم يصف مجد القبيلة، لكن مجد الأمة والملة أعظم مجد؛ لأنه مجد عام ومجد سؤدد، وإلا فكل الناس لهم مجد، حتى يقول الحسين بن المطيري يمدح بني مطر قبيلة من قبائل العرب، فيقول:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَأَنَّهُمْ أُسُودٌ لَهَا فِي بَطْنِ غَطَفَانَ أُسْبُلٌ

هُمُ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّهُ
لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَائِكِينَ مَنزِلُ
بِهَاتِلِيلٍ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ
لأُولِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْلُ
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دَعُوا
أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْرُكُوا

إلى آخر ما قال، وهي من أحسن قصائد المدح.

وابن قابوس - ملك قديم في القرن الرابع - ابتلي بابتلاءات واضطهد وسُجن، وجاءت عليه ثورات وشمت به أعداؤه، وكان شاعراً مجيداً في الشعر، فقال:

أَمَا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جَيْفٌ
وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ دُرٌّ
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لَا عِدَادَ لَهَا
وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

كم في السماء من نجم، ولكن لا يتعرض للأفول إلا الشمس والقمر، فيصيبهما الخسوف والكسوف، ومن هنا، فلا يعير أحدٌ أحداً، لأن الأبطال والبارزين والمبدعين والمنتجين والنافعين والمفيدة والواجهات والرموز دائماً هم الذين تأتيهم الضربات ذات اليمين وذات الشمال، كما يقول أبو الطيب المتنبّي:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَدْمَتِي مِنْ نَاقِصٍ
فَهِيَ الشُّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

وأبو تمام يقول:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
طُوِيَتْ أَسَاحُ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ
لَوْ لَا اشْتِعَالَ النَّارِ فِيمَا جَاوَزَتْ
مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ نَفْحِ الْعُودِ

فدل على أن المجد يُتعب له، حتى يقول أبو الطيب المتنبّي:

لَا يُبْرِكُ الْمَجْدُ إِلَّا سَيِّدَ قَطِينٍ

المجد لا يُباع في السوق، ولا يحصل عليه السفيه والغبي، المجد لا يأتي على طبق من ذهب هدية، بل يأتي المجد بدماء ودموع وأشلاء، حتى مع غير المسلمين؛ فهذا نيسلون منديلا أخذ المجد في سبع وعشرين سنة في زنزانة وراء الحديد بالقضيان، وألف كتاباً اسمه: رحلتي الطويلة في الحرية. وخرج بدماء ودموع وجهاد وسهاد وسهر وسفر، فيقول المتنبّي:

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ لَمَّا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالٍ
لَا خَامِلٌ جَهَلَتْ كَفَاهُ مَا بَدَأَتْ وَلَا جَبَانٌ بَغِيْرَ السَّيْفِ سَنَالٍ
دَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالٍ

فالمجد له ثمن يوم يقول الأول:

ثَمَنُ الْمَجْدِ دَمٌ جُودْنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَا

يقول: لما طلبتنا المعركة والانتصار والاستقلال كل دولة لها رموز.

أنا ذهبت إلى إندونيسيا والشارع الرئيس في جاكرتا: أبطال الاستقلال. وإذا هم هناك لهم صور، قالوا: هؤلاء الذين شاركوا في القتال، وقاتلوا هولندا حتى حفظت أسماءهم عند الأمة.

وتذهب في أفريقيا وإذا زعماء الإصلاح وأبطال الاستقلال والمكافحون عن مجد الأمة، وعندنا من الرموز وعندنا من السادات ومن الأخيار ما نحفظ أسماءهم؛ لأنهم قدموا لبلادهم ولأوطانهم من التضحية ومن الفداء ومن النيل، فمن وفائنا لهم أن نحفظ أسماءهم وأن نقدرها وأن نحترمها، سواء في الجانب العلمي أو الجانب السياسي أو الجانب الفكري أو الاقتصادي أو الأدبي، كل من نفع أمته ووطنه وقدم لها خدمة راقية من الإصلاح والإعمار والبناء احترمناه وسجلنا اسمه وترحمنا عليه، ولكن أيضاً كل من سعى في خرابها ودمارها وفي الإفساد

أغيناه من الذاكرة وحاربنا اسمه ولم نرض فعله؛ لأن الله ﷻ يحب الإصلاح والصالح ولا يحب المفسدين ولا يهدي عمل الخائنين.

قرأت أن الوزير أبا الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الذي قال عنه الذهبي إنه: وزر غير مرة للمقتدر، وللقاهر، وكان عديم النظر في فنه، ويخبر عنه الصولي، قائلاً: «لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وحفظه للقرآن، وعلمه بمعانيه...» يحكي عنه المحدث أبو سهل القطان: كنت معه لما نفي بمكة [فدخلتها في حر شديد، وقد كدنا نتلف] فطاف يوماً، وقد جاء فرمى بنفسه، وقال: أشتهي على الله شربة ماء مثلوج. قال: فنشأت بعد ساعة سحابة ورعدت، وجاء برد كثير جمع منه الغلمان جراراً، وكان الوزير صائماً، فلما كان الإفطار جئته بأقداح من أصناف الأسواق، فأقبل يسقي المجاورين، ثم شرب وحمد الله، وقال: ليتني تمنيت المغفرة. ولما رجع إلى بغداد حصل الانقلاب وحُكِمَ عليه بالإعدام. ومشى، والناس كل ينظر إليه منهم الحساد والشامتون، فقال:

وَمَنْ يَكُ عَنِّي سَائِلاً بِشِمَاتِهِ لِمَا نَابَنِي أَوْ شَامِتًا غَيْرَ سَائِلٍ
فَقَدْ أَبْرَزَتْ مِنِّي الْخُطُوبُ ابْنَ حُرَّةٍ صَبُورًا عَلَى أَحْوَالِ تِلْكَ الزَّلَازِلِ

يقول: الحمد لله، قضاء وقدر، أنا أذهب إلى الموت ورأسي مرفوع، أنا أذهب وأنا شريف، أنا ألقى حتفي وأنا على مجد وعلى هداية ربانية. لأن أعظم المجد طاعة الله ﷻ والانتصار له، فهو كان وزيراً وأنصف في حكمه وأنصف في ولايته، ثم حصل له شيء وقام عليه أعداؤه وحكموا عليه بالإعدام. فانظر هذا الثبات يقولون: مُسَلَّسٌ بالحديد. ويذهب إلى المنصة، حيث المشنقة، فيُشْنَقُ ويُعَدَمُ، ومع ذلك التفت إلى الجمهور، وقال تلك الأبيات؛ أي: أعلموا من لم يسأل بشماتة عنا، والذي شمت وما سأل.

ولذلك لما قُتِلَ الوزير ابن بقية قال أبو الأنباري فيه وهو مصلوب:

عُدُّوْ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لِحَقِّ أَنْتِ إِحْسَى الْمُعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
كَأَنَّكَ وَقِفَ فِيهِمْ خَطِيباً وَهُمْ وَقَفُوا قِيَاماً لِلصَّلَاةِ
مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ اخْتِذَاً كَمَدَّيْهِمْ إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ

هذا مجد يصل بك إلى رب العالمين، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة
حسنة وقفنا عذاب النار.



بر الوالدين

بر الوالدين من الحكمة والأدب والشرف،
وبعد حق الله ﷻ حق الوالدين، فليس في العالم
أحد متفضل عليك بعد تفضل الله ﷻ كتفضل
الوالدين، ليس في العالم من حرص عليك ولا
قدم لك ولا أسدى لك جميلاً ولا تفعلك ولا كان
سبباً في وجودك، بعد فضل الله ﷻ كالوالدين،
فهما بمنزلة الروح لمن كان له قلب ولمن كان عنده
ضمير ووفاء، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ
عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا

أَفِي وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿ [الإسراء: ٢٣]. ثم يقول ﷺ ﴿ وَفَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفِي وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿ [الإسراء: ٢٣].
أف هي أصغر كلمة تضجر أو تأفف أو تدمر، حتى هذه الكلمة لا تقلها، فكيف بما فوقها من الكلام؟

وجعل ﷺ من أسباب إطالة العمر والبركة في الرزق وانسراح الصدر بر الوالدين، حتى إن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يريد الجهاد، فقال ﷺ: «أَحْيِ وَالِدَاكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ». وقال لرجل: «الزَّمْ رَجُلَ أُمِّكَ فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيْهَا». أي: في خدمتها وفي طاعتها، وفي أثر: «الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ».

ولذلك تبارى الشعراء والحكماء في هذا الفضل وهذا الخير تنوياً ودعوة ونصحاء لمن اتقى الله وقبِلَ النصح. يقولون: مُنَازِلٌ - رجل من ثقيف - عَقُّ أَبَاهُ. فقال أبوه فيه:

وَرَبَيْتُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكْتُهُ أَخَا الْفَحْلِ وَاسْتَغْنَى عَنِ الطَّرِشَارِبَةِ
قال: ربيته، حتى صار كبيراً.

تَعَمَّطَ حَقِي ظَالِمًا وَلَوْ يَدِي لَوَى يَدَهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ

يقول: أغضبه ثم لوى يده أمام الناس. شيخ كبير ووالد وصاحب حق، ثم يفعل بي هذا الفعل؟ أكبر عاق هو منازل الذي صار مضرب المثل عند الناس، وذكر الزمخشري صاحب الكشاف فيما يروى أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنِي رَبَيْتُهُ مِنْ صِغَرٍ وَأَطْعَمْتُهُ مِنْ جُوعٍ، سَهَرْتُ لَيْدَامَ وَتَعَبْتُ لَيْرَتَا حَقِي فَلَمَّا كَبُرَ تَعَمَّطَ حَقِي وَظَلَمَنِي! فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: أَمَّا قُلْتُ فِيهِ شِعْرًا؟ - لأنه ﷺ يعرف أنه شاعر - قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مَاذَا قُلْتُ؟ قَالَ: قُلْتُ:

عَذِيَّتُكَ مَوْئُودًا وَعِدَّتُكَ يَافِعًا
تَعْلُ بِمَا أُجْرِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ صَافَتْكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبْتِ
لِسُقْمِكَ إِلَّا شَاكِيًا أَتَمَلُّ
كَأَنِّي إِذَا الْمَلْدُوعُ دُونَكَ بِالْيَدِي
لُدِغْتُ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمَلُ

أنت تمرض وكأني أنا المريض، وتصيبك الحمى، فتصيبني أنا الحمى، ولذلك جرب فتعلم من أبيك وأمك أنهم لا ينامون إذا مرضت، وإذا غبت فهم معك بقلوبهم وأرواحهم، يرضون أن يجوعوا لتشبع وأن يتعبوا وترتاح وأن يسهروا وتنام وأن يشقوا وأنت تسعد، قال:

كَأَنِّي إِذَا الْمَلْدُوعُ دُونَكَ بِالْيَدِي
فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي
جَعَلْتَ جِرَائِي غِلْظَةً وَفِظَاطَةً
لُدِغْتُ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمَلُ
إِلَيْهِ مَدَى مَا فِيكَ كُنْتُ أَوْمَلُ
كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَعْ حَقَّ أُبُوتِي
فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ

يقول: ليتك فعلت كالجيران؛ كففت أذاك وكنت مسالماً، إذا ما استطعت البر وما استطعت العطاء وما استطعت إرضاء الوالدين، فعلى الأقل سالمهم وكف أذاك عنهم، لكن نعوذ بالله أن يصل بالإنسان إلى أن يؤذي والده أو يؤذي والدته أو يجفوهما.

ولذلك، فقد رأيت أن أكثر من وُقِّق في الحياة من برِّ والديه جميعاً، الرسول ﷺ صُنِعَ لَهُ مِنْبَرٌ مِنْ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ؛ لِيَرْتَقِيَ عَلَيْهِ خَطِيبُ الْعَالَمِ وَمُصَلِّحُ الدُّنْيَا «فَصَعِدَ الدَّرَجَةَ الْأُولَى فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ صَعِدَ الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ صَعِدَ الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ جَلَسَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَاذَا أَمَنْتَ؟ قَالَ: لَمَّا صَعِدْتُ الْأُولَى أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ أَدْرَكَ أَبُوِيهِ فِي الْكِبَرِ أَوْ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ. وَلَمَّا صَعِدْتُ الثَّانِيَةَ قَالَ لِي: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ أَدْرَكَهُ رَمَضَانُ

وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ. فَلَمَّا صَعِدْتُ الثَّالِثَةَ قَالَ لِي: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ ذَكَرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ». فانظر كيف جعل سبب غفران الذنوب بر الوالدين، ولهذا صار ممن بر بالإسلام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد العشرة، كان طيب القلب صحيح الطريقة، وهو المقصود بالرجل في الحديث الذي يقول: «يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فلما جلس معه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال سعد رضي الله عنه: «لَسْتُ كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنِّي مَا بَتُّ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي وَفِي قَلْبِي غَلٌّ عَلَى أَحَدٍ». كان طيب السريرة وكان باراً بأمه رضي الله عنها، فلما أسلمت أبت أمه الإسلام ورفضت وأقسمت ألا تأكل الطعام؛ حتى يرتد عن دينه فأخذها باللين وبرها وقبّل رأسها وسألها بالله، فقالت: أبداً، والله لا أكل الطعام؛ حتى ترتد عن الإسلام. قال: «يَا أُمَّهُ، وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ لَكَ شَعْرَ رَأْسِكَ نُفُوساً، فَتَخْرُجُ نَفْساً نَفْساً أَمَامِي عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِي مَا رَجَعْتُ؛ فَكَلِّبِي أَوْ اتْرُكِي». وفي آخر النهار أكلت، وقال بعض أهل العلم: ثم أسلمت فيما بعد.

ومنهم أويس القرني قال رضي الله عنه: «مَنْ أَدْرَكَهُ فَلْيَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ». كان من صالحي التابعين وسيد التابعين، فقال: «وَلَهُ أُمَّ هُوَ بِهَا بَارٌّ». فكان يبر أمه حتى يقول: إنه كان إذا قرب الطعام لا يضع يده حتى تضع أمه يدها، ويقول: أخشى أن أكل معها فتقع عينها على شيء من الطعام وأنا أكل منه فيتخرج رضي الله عنه «وَيَقُومُ فِي خِدْمَتِهَا، وَكَانَ يَغْسِلُ الْغُبَارَ عَنْ أَقْدَامِهَا». فرفع الله ذكره وأعلى قدره.

ولذلك مما تُسْتَنْزَلُ بِهِ الْبِرَكَاتُ وَتُسْتَدْرُ بِهِ الرَّحِمَاتُ وَيَرْضَى بِهِ رَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَتَرْفَعُ الدَّرَجَاتُ وَتُضَاعَفُ الْحَسَنَاتُ وَتُكَفَّرُ السَّيِّئَاتُ بِرِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، مَا أَحْسَنَ أَنْ يَقُولَ لَكَ أَبُوكَ: بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ. وتقول الأم: غفر الله لك. انظر دعوة الأم. لذلك جعل رضي الله عنه للأُم ثلاثة أرباع الحق. قال رجل: «مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ. فَجَعَلَ لَهَا رضي الله عنه ثلاثة أرباع الحق من

التقدير والتوفير والاحترام.

ثم إنها ضعيفة، يقولون: أعرابي ذهب إلى الحرم فأخذ يدعو لأمه وأكثر لها الدعاء، قال له رجل بجانبه: ولأبيك. قال: أبي قوي يدافع عن نفسه. فانظر لجهله يظن أنه يوم القيامة يريد أن يدافع بقوة، وليس صحيحاً فكل يوم القيامة ضعيف ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]. لكنها أمثال تُضرب.

وممن حفظ التاريخ لهم البر رجل من أهل اليمن كان يحمل أمه ويطوف بها عند البيت، في شدة الحر، وعرقه يتصبب فقال لابن عمر «: أتراني- يا ابن عمر- وفيتُ بحقها؟ أي: رددت لها الجميل؟ قال: «وَلَوْ بِزَفْرَةٍ مِنْ زَفْرَاتِهَا». ولو بطلقة من طلقاتها وقت الولادة ما رددت هذا الجميل، فنسأل الله أن يغفر لآبائنا وأمهاتنا وأن يجزينا عنهم خيراً، وأن يتولى برهم ﷺ.

وممن كان يبر بأمه ابن سيرين، فكان مضرب المثل في ذلك، فقال: ما صنعت سطح بيت وأمي تحته في الغرفة أخشى أن أعلو بنفسي عليها، وما أكلت مع أمي من مائدة أخشى أن تشتهي طعاماً فأأكله قبلها، وكان إذا كلمته أمه يقف عندها، وكان يخفض رأسه كأنه يستريدها من الحديث، وكان لا ينام حتى تنام أمه ويهيئ لها وضوعها وماءها وشربها ولبنها، ولذلك تجد أن من الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، ففرج عنهم أولهم رجل يقول: «يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ إِنِّي أَتَيْتُ بِالْإِبْلِ فَأَرَحْتُ إِبْلِي وَحَلَبْتُ اللَّبْنَ. وَكُهُ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَقَدْ نَامَا، فَأَتَيْتُ فَإِذَا أَطْفَالِي يَتَضَاعُونَ عِنْدَ أَقْدَامِي، وَالْأَطْفَالُ يَصِيحُونَ: اسْقِنَا لَبْنًا. فَبَقِيَ حَتَّى بَرَقَ الصَّبَاحُ، فَلَمَّا بَرَقَ وَطَلَعَ الْفَجْرُ أَقْبَضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ فَسَقَاهُمَا ثُمَّ سَقَى أَطْفَالَهُ، قَالَ: إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ لِرُوحِكَ، فَكَشَفْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ». فانفرج من الصخرة الثلث ثم كمل البقية ففرج الله عنهم ﷺ. فالشاهد بر الوالدين وعظمة هذا البر وما لهم

من الحقوق، حتى إنك تجد أنه مهما فعل الولد مع والديه فلا يمكن أن يُنصَفهم ولو حج أو اعتمر أو دعا، فدائماً الحق للوالدة ثم الوالد لعظم ما قدموه، فالوالدة حملت به كرهاً على كره ووضعتة ثم أرضعته ثم ألحفتة، ثم أدفأته ثم أطعمته ثم أسقته ثم تولته بحنانها، والأب رعاها وأدبه وأنفق عليه وكدَّ عليه وكساه وحماه وتولاه، فنسأل الله أن يتولى جزاءهما عنده من الغضبان والرضوان فإنه الملك الرحمن ﷻ.

فهذه رسالة لأناس يعيشون العقوق؛ فإن من عقَّ ربه عقَّ والديه، ومن نسي مولاه نسي أهل الحق الذي يجب عليه، لأن الحقوق لا بُدَّ من أن تؤدي إلى أهلها، لكن من أعرض عن ذكر الله ﷻ وأدبر عن الهداية واستبدل بها جلساء السوء، ولم يكن له مطالعة في كلام الحكماء وكلام أهل العلم وكلام أهل الفهم ضل سواء السبيل. وإلا فالعقول تشهد، حتى إنك تجد في عصرنا عن غير المسلمين، مثلاً اليهود والنصارى عندهم من تقدير الوالدين الشيء العظيم عندهم قصص وأخبار في ذلك. وقد قرأت في كتبهم وفي تاريخهم ما يثير العجب، فأقول: هؤلاء وهم على دين منسوخ ودين محرف، فأين أبناء الإسلام من هذا البر؟

وما زال - والحمد لله - في الجيل والمجتمع من البررة من يُضرب فيهم الأمثال في البر، وأعلم أناساً كثيراً حتى إن منهم من يبتدئ صباحه بتقبيل كف والديه ويطلب منهما الدعاء، فتفتح أمامه أبواب الخير وأبواب الرزق وأبواب التسهيل وأبواب التيسير. أعرف كاتباً عربياً لوقفت لكم: إنه أشهر كاتب عربي لما بالغت، فهو يُشارك في بعض القنوات بلغ قرابة التسعين، حتى إنه يقول: سبب توفيقى أن أمي كانت تقول: الله يفتح لك أبواب التوفيق. يقول: كنت آتيها كل صباح فأقدم لها الحليب وأخدمها وأقدم حذاءها، فتقول: الله يفتح لك أبواب التوفيق. قال: فما سلكت طريقاً إلا فُتِحَ لي. لأن هذا دعاء صادق ودعاء حار، حتى إنه يقال: برُّوا آباءكم يبركم أبناءكم.

ومما يروى في الأخبار الشعبية أن رجلاً سحب ابنه في درج عنده في البيت، فقام الجيران لنجدته، فإذا الابن العاق يسحب أباه في الدرج، فلما وصل الدرجة الثانية عشرة، قال أبوه: قف، والله إني سحبت والدي إلى هذا المكان وهذا جزائي. فيقول هو: أنت جازيتني بجزاء أبي فقد عقتت أبي وأنت عقتتني، فالجزاء من جنس العمل.

وقد يُقصر الوالد كذلك بأن لم يعلم ابنه ولم يربّه ولم يعلمه كتاب الله ﷻ ولا سنة رسول الله ﷺ ولا أجلسه عند أهل العلم إنما تركه جاهلاً، ويُذكر في الأخبار عن بعض العلماء أن رجلاً أتى بابن له وإذا الابن سمين بدين متين، قال العالم: ما لك؟ قال: هذا ابني ضربني. قال: سبحان الله! ابنك يضربك؟ قال: اختلفت معه اليوم فمد يده يضربني، فأريد أن تتصحه. فأتى يسأل الابن فإذا هو جاهل بالقرآن وجاهل بالسنة وجاهل بالأدب والحكمة، فالتفت العالم إلى الأب وقال له: علمته القرآن؟ قال: ما علمته؛ سُغِلْنَا. قال العالم: حفظته شيئاً من سنة رسول الله ﷺ؟ قال: ما علمته. قال: لقتنه شيئاً من الأدب الذي يحث على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: هو ظنك ثوراً فضربك؛ بما أنك ما علمته ولا ميزت له.

فيقولون: من الأدب كما يقول سفيان: لاعب ابنك سبعاً، وأدبّه سبعاً، وصاحبه سبعاً ثم اتركه للتجارب. فالسبعة الأولى لاعبه، ولذلك من المصلحة ألا تدرس ابنك حتى يبلغ سبع سنوات، يقول ﷺ: «مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ». وهذه التربية معمول بها في بعض دول العالم، يصلون للسابعة؛ لأنه يصل إلى حد التكوين لذهنه ولنفسه ولجسمه، ولذلك لا أُؤَيّد أن يذهب بالأبناء ويُعلمون بالرابعة ويُحشون بالمتون في الخامسة ويتعبون ويرهقون، أنا أرى أن هذه السبع كلها مزاج ودُعَابَةٌ وأخذ بأصول بعض الآداب الخفيفة، فإخوة يوسف ﷺ يقولون لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]. لأن الطفل حياته في اللعب، وأمامه أوقات للجد، والأيام أمامه بالغموم والهموم فلا تستعجل

عليه، وأما السبعة الثانية فأدبه أديباً بِلُطْفِ فِي الطَّعَامِ وَفِي الشَّرَابِ وَفِي الْجُلُوسِ وَفِي الصَّلَاةِ وَفِي قَوْلِ الْكَلَامِ وَفِي النَّوْمِ وَفِي النَّظَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، أما السبع الثالثة (٢١-١٤) فصاحبه يصبح صاحباً لك، تحترمه، تكفيه الكلمة ويكفيه الإنكار، أما بعدها فاتركه للتجارب؛ فقد أصبح رجلاً وأصبح مثلك؛ فإن صلح فالحمد لله وإن كان غير ذلك فلن تستطيع؛ فالهادي هو الله ﷻ.

فهذا كلامهم في البر الذي نُقِلَ إلينا وأخبارهم كثيرة، ولكنهم كانوا يقدرون بَارَ الْوَالِدِ وَبَارَ الْوَالِدَةِ، حتى إنهم يقولون: الرجل الكريم لا يأنف من ثلاث: من خدمة والده، وضيافته، ومُعَلِّمِهِ.



محمد إقبال

محمد إقبال هو شاعر الإسلام في العصر الحاضر، وشعراء العالم في العصر خمسة. ذكر ذلك الصاوي الشعلان والأعظمي فهم: شكسبير في الإنجليز، وجلال الدين الرومي في تركيا، والسعد الشيرازي في إيران، ومحمد إقبال في باكستان، وطاقور في الهند.

ولناخذ بعض النماذج، فطاقور له قصيدة عن الهند، يقول - بعد ترجمتها -: أنا نزلت إلى شوارع نيودلهي أطلب ربي أن يعطيني مالاً؛ لأشتري سيارة، لكنني رأيت في الشارع رجلاً

مكسور القدمين على دراجة، فقلت: يا ربِّ كَفَى كَفَى، قدماي تكفي. أي: بالنعم تحمد الله ﷻ على ما عندك، فإن الله قد أعطاك ما لا كثيراً وأنت لا تشعر. وجلال الدين الرومي له أبيات، فيقول:

مَا مَرُّ مِنْ طَيْفِ الْهَوَى بِمَسْمَعِي لَوْ سَمِعْتَ وَرُقُ الْحِمَى نَاحَتْ مَعِي
يَا مَعْشَرَ الْخِلَافِنِ قُولُوا لِلْمَعَايِ: لَسَدَتْ تَدْرِي مَا بِقَلْبِ الْمَوْجِعِ

ونعود إلى محمد إقبال، فهو من الشعراء الكبار الذين قدموا الكثير للإسلام عبر القافية وعبر الأدب الراقي والإبداع الماتع، وشهد له المسلمون وغيرهم بجودة الشعر.

إن محمد إقبال - حسب بعض الأقوال - شاهد على أن الإسلام يُقَدَّرُ ويحترم كل من اعتنقه، وأنه يُعَلِّي قدره، سواء أكان من العرب أو من الهنود أو التركمان أو الأتراك أو أي فئة من فئات العالم، فيقول يرثي للعالم الإسلامي بعد التخلف والرفاهية التي يعيشها الإسلام وانحصار الدروس العلمية، فيقول:

أَرَى التَّفْكِيرَ أَدْرَكَهُ حُمُولٌ وَلَمْ تَبْقَ الْعَرَائِمُ فِي اشْتِعَالِ

يقول: أين التفكير الأول؛ عقول الصحابة وعقول التابعين رضي الله عنهم؟

وَأَصْبَحَ وَعَظْمُكُمْ مِنْ غَيْرِ نُورٍ وَلَا سِحْرَ يُطِلُّ مِنَ الْمَقَالِ (١)

يعظ الناس، لكن ليس لوعظهم تأثير في القلوب.

وَعِنْدَ النَّاسِ فِلْسُفَةٌ وَذِكْرٌ وَلَكِنْ أَيْنَ تَلْقِينُ الْغَزَالِي؟

يقصد صاحب الإحياء، فيقول: أنتم تبهرجون بالعبارات والثقافات الإسلامية، لكن أين صدق الغزالي في الإحياء الذي يلذع قلبك، وذلك لا يوجد إلا عند الغزالي.

(١) أي: لا سحر من الكلام.

مَنَائِرُكُمْ عَدَّتْ فِي كُلِّ سَاحٍ وَمَسْجِدُكُمْ مِّنَ الْعِبَادِ خَالِي

أما المساجد فكثيرة ولله الحمد ومبينة على أحدث طراز، ومنقوشة ومزينة ومجملة، وفي الحي عشرة مساجد، وصلاة الفجر لا تجد إلا صفاً واحداً على الأكثر.

وَجَلَجَلَةُ الْأَذَانِ بِكُلِّ حَيٍّ وَلَكِنْ أَيْنَ صَوْتٌ مِّنْ بِلَالٍ؟

أين صوت بلال الذي يأخذ بشغاف القلوب ويتعمق في الأرواح ويأتي بالناس والمصلين من البيوت، بلال إذا أذن توقف الزمان، حتى يقول أبوريشة في قصيدته المشهورة: أنا في مكة.

لَمْ تَزَالِي عَلَى مَمَرِ اللَّيَالِي مَوْئِلَ الْحَقِّ يَا عُرُوسَ الشَّمَالِ
هَـانَ فِي خِيَابِكَ الْوَضِيءِ التِّفَاتَاتُ دُهُولٍ وَهَيْمَنَاتُ ارْتِحَالِ
وَاسْتَفْصَافَتْ عَلَى صَبَاحِ جَدِيدِ مِلءُ آذَانِهِ أَذَانُ بِلَالِ

فهو ينعى على الأمة في الأذان وفي الوعظ وفي التعليم والتدريس والصلاة، أي: في عصر الانحطاط. قد زار محمد إقبال مسجد الرسول ﷺ وبكى عند القبر، فقال يعتذر:

إِنْ كَانَ لِي نَعْمُ الْهُنُودِ وَدُنُّهُمْ لَكِنْ ذَاكَ الْبَدَنُ مِنْ عَدْنَانِي

يقول: إن كنت أنا أتكلم بكلام الهنود ولكنة الهنود ولا أعرف العربية الفصيحة، فإن قلبي وروحي من ذلك العدناني ﷺ، أنا أعشق رسالته ومبادئها. ويقول: سبحان الله كيف أن هذا الدين أخرج أمة من الأمم كان أهلها مشركين ومع الأوثان يسجدون للصنم؟ يقول في بيت له:

وَأَصْبَحَ عَابِدُ الْاَوْثَانِ قِدْمًا حُمَاةَ الْبَيْتِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِي

فيقول: سبحان الله! كانوا يسجدون لهبل واللات والعزى وأصبحوا الآن حماة البيت وحماة الركن اليماني، يقدمون رسالتهم للعالم الإسلامي كيف تحولوا بهذا الدين الجديد الذي بعث في أرواحهم نوراً، وشعُ فيهم فجرٌ جديداً، فأصبحوا هداة ومشاعل حق في البشرية. هؤلاء هم أصحاب الرسول ﷺ.

ويرى أن الحياة لا تساوي شيئاً دون إيمان، ولا قيمة لها دون الإيمان بالله، وأن الإنسان دون إيمان مثل البهيمة إن هو إلا دابة في الأرض، فقال:

إِذَا الْإِيمَانُ ضَاعَ فَلَا أَمَانَ
وَلَا دُنْيَا لِمَنْ لَمْ يُخَيِّ دِينَا
وَمَنْ رَضِيَ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ دِينٍ
فَقَدْ جَعَلَ الْفَنَاءَ لَهَا قَرِينَا

تريد حياة دون دين؟! أنت والفناء سواء، تريد حياة دون إيمان؟! أنت والدابة والبهيمة سواء، يقول ﷺ: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» [الفرقان: ٤٤]. فالإنسان إن لم يكن عنده ثقة بالله وصلته به، فماذا يريد بالحياة وماذا يريد بالبقاء؟! يأكل ويشرب وينام! هذه فلسفته في الحياة.

وهو يمدح دائماً الإيمان والإسلام فيقول:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَوْنٌ
تَأَهَّتِ الْأَفْئِدَةُ فِيهِ

يقول: المؤمن مثل الكون، فالؤمن تجد عنده بصيرة، وعنده فقه بالدين، ومعرفة بالآيات، ومعرفة بالآخرة، ومعرفة بسيرة النبي ﷺ، ومعرفة بالحق والفضيلة يحب العدل.

وَأَرَى الْكَافِرَ تَيْهًا وَأَرَى
الْكَافِرَ تَيْهًا وَأَرَى

مثل التيه الذي في بني إسرائيل حيران ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي

الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا قُلُوبًا هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى
وَأَمْرًا لِلْمُسْلِمِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ٧١]﴾. حيران ممزق قلق لا يهتدي، كالشاة
العاذر بين الشاتين ليس له مبدأ، ويدعو محمد إقبال المسلم لأن يجسد من نفسه
داعية لمنهاج محمد ﷺ وأن ينشر مبادئ الرسول ﷺ في العالم، يقول:

أَنْتِ كَنْزُ السُّرِّ وَالْيَاقُوتِ فِي نُجَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوكَا

يقول: ما بقي في هذا العالم إلا المؤمن المتبع رسول الله ﷺ، أنت الدرّة في
البحار وغيرك لا يساوي شيئاً وهم خشب وخطب.

مَحْضُلُ الْأَجْيَالِ مُحْتَاجٌ إِلَى صَوْتِكَ الْعَالِي وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوكَا

العالم يحتاج إلى نبرة في الحق والعدل والسلام التي يبعثها المؤمن والمسلم
لرفع راية الحق والإيمان في العالم وبث النور في المعمورة.

ثم يقول في أنشودة له: شكوى وجواب شكوى:

حَدِيثُ الرُّوحِ لِالأَرْوَاحِ يَسْرِي وَتُنْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِإِلَاعِنَاءِ

يقول: يا أيها المسلمون، أبت لكم حديث روعي، وسوف أرسل لكم رسالة من
أعماق ومن فؤادي، دعوني أبت لكم شكواي أيها المسلمون.

هَتَفْتُ بِهِ فَطَارَ بِإِلَاحِنَاحِ وَقَضُّ أُنَيْنُهُ صَدْرَ الْفَضَاءِ

وَمَعْبِدِنُهُ رُخَامِيٌّ وَلَكِنُّ جَرْتُ فِي لَفْظِهِ لُغَةَ السَّمَاءِ

يقول: في صوتي لغة القرآن، أنا أستشهد بالآيات والأحاديث، ولذلك يكاد صوتي
يفض الكون وتهتز له السماء والأرض، هذا لأن معي آية محكمة ورسالة خالدة. أي:
يصفها للعالمين، ثم يتكلم عن الأمة الإسلامية وهو يناجي ربه عند المقام في
قصيدة اسمها: تاج مكة. أي: البلد المقدس الحرام الكبير تاج مكة، فيقول:

يا رب، نحن أمة الإسلام، نحن الذين صلينا على ضفاف النوار وسجدنا في
سيبيرنا، نحن الذين رفعنا السيوف لرفع اسمك.

يَا رَبِّ مَنْ ذَا الَّذِي رَفَعَ السُّيُوفَ فَوْقَ هَامَاتِ الشُّجُومِ مَنَارًا

من غير أمة الإسلام أمة العرب الأولى التي ارتفعت سيوفها، فارتفعت كلمة:
لا إله إلا الله؟ حتى يرتفع فوق الأفلاك اسم: لا إله إلا الله.

لَنْ تَنْسَى إِفْرِيقِيَا وَلَا صَحْرَاؤُهَا سَجَدَاتِنَا وَالْأَرْضُ تَقْدِفُ نَارًا

يقول: كنا نتقدم في المعارك، فإذا أذن المؤذن وضعنا كل شيء وصلينا.
حتى إنه يقول في قصيدة أخرى:

نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا دُعُوا لِصَلَاتِهِمْ وَالْحَرْبُ تَسْقِي الْأَرْضَ جَامًا أَحْمَرًا

أي: دمًا. فيقول: الحرب مشتعلة والدم يسيل والرؤوس تتساقط وتتطاير
الأرواح، فإذا سمعنا: الله أكبر.

فَإِذَا سَمِعْنَا: اللَّهُ أَكْبَرُ عَنَّا تَوَجَّهْنَا إِلَى الْجِجَارِ مَسْمَعِ الرُّوحِ الْأَمِينِ فَكَبَّرًا

يقول: يُكَبِّرُ لَنَا وَيَكْبُرُ جَبْرِيلُ عليه السلام في السماء وتفتح أبواب السماء وتفتح أبواب
الجنة، فيتصل تكبير الأرض بتكبير السماء، وتكبير الملائكة بتكبير المؤمنين.

يَوْمَ التَّقَى الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: اقْرَأْ

ذهبت إلى أندونيسيا في جاكرتا في معرض الكتاب من أجل كتاب (لا

تحزن) ونائب رئيس الجمهورية هو الذي افتتح المعرض، فقام شابان منشدان

من أندونيسيا بلغتهما، ينشد أحدهم، ويرد عليه الثاني، فيقول: اقرأ. فيقول: ما

أنا بقارئ. أبكانا جميعاً، ينشد ويقول بالأندونيسي: إن هذا قول جبريل عليه السلام

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرد عليه، فيقول: اقرأ. فيقول الآخر: ما أنا بقارئ. ويضع يده

على فمه، فبكى الناس.

ملحمة إقبال

تلك الليلة بدأ تاريخنا واتصلت الأرض بالسماء وفي تلك الليلة انتهى الظلم في العالم وانتهى الكفر، بدأنا مرحلة جديدة وبدأنا نطل على الكون وبدأنا نقود البشرية، يقول الشاعر الشعبي:

ليلة الغار جبريل ومحمد وآخر الليل خير من أوله
والمجالس روى مسلم وأحمد والرسالة مصالِح مرسله

أي: مجالسنا. بدلاً من الحكاوي والعبارات الفارغة من درجات حرارة وغيرها وأسعار التمر والشعير، فقد انتهى موضوعها وما عادت إلا أحاديث رواها مسلم وأحمد. الرسالة السماوية.

فقال إقبال:

لَنْ تَنْسَى إِفْرِيْقِيَا وَلَا صَحْرَاؤُهَا سَجَدَاتِنَا وَالْأَرْضُ تَقْدِفُ نَارَا
وَكَاَنْ ظِلُّ السَّيْفِ ظِلُّ حَدِيقَةٍ خَضْرَاءَ تُثْبِتُ حَوْلَنَا الْأَزْهَارَا
لَنْ نَنْسَى طَاعُوتَا يُحَارِبُنَا

يقول: يوم فتحنا باسم الله الأرض، ويوم عبرنا القارات ومشينا على البحار والقفار ب(لا إله إلا الله) يقف الطاغوت أمامنا فما نخشاه.

وَلَوْ نَصَبَ الْمَنَائِيَا حَوْلَنَا أَسْوَارَا

يقول: مهما وضع من منايا، وحاول قتلنا.

أَرْوَاحُنَا- يَا رَبِّ- فَوْقَ أَكْفِنَا

يقول: نقدم أرواحنا هدية لله الواحد. كما يقول خلف:

في سوق جاتك ما هي سوق هونا

يقول: «أتينا من فين»؟

وإن دندنت طلبه الحرات دندنا بآيات حق علي وبلال دندنها

وأنا أشكره؛ لأنه يقول في شعب الرسالة:

عندنا شعب يصد الهجوم الصادقات من بغانا بالهزيمة يذل ويهزم

الرسالة عندنا دائماً حكم وثبات نُفْهِمُ اللّٰهِي مَا فَهَمُ وَإِنْ بَغَى لَا يَفْهَمُ

فيقول محمد إقبال:

أَرْوَأْحُنَا - يَا رَبِّ - فَوْقَ أَكْفُنَا نَرْجُو نَوَابِكَ مَغْنَمًا وَجِوَارًا

يقول: ما أردنا المال، ما جمعنا القصور والدور، بل نريد الجوار عند الله الواحد الأحد. فأسيا صارت مثلاً للمسلمين تقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ۱۱]. فهنا يقول هو:

كُنَّا نُقَدِّمُ لِلسُّيُوفِ رُؤُوسَنَا لَمْ نَخْشَ يَوْمًا غَاشِمًا جَبَّارًا

كُنَّا نَرَى الْأَصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ فَتَهْدِمُهَا وَتَهْدِمُ فَوْقَهَا الْكُفَّارًا

لأنه يوم وصل القائد المسلم العسكري بلاد الهند، مرُّ بألف مقاتل، أي: مليون. يفتح بلاد الهند، فجاء ملك الهند، وقال: أريد أن أتصالح معك. قال: وما الصلح؟ قال: أريد أن أعطيك هذه الأصنام من ذهب كلها ودعنا في أرضنا. قال: أي: أخذ الفدية وأترككم على الكفر؟ قال: نعم. قال: حتى يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا مشتري الأصنام. بل أكسرها وأكسر رؤوسكم عليها؛ حتى يقول الله: يا مكسر الأصنام. فراغ عليهم ضرباً باليمين، قال:

لَوْ كَانَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ لِحَازٍ كُنْزًا وَصَاعَ الْخُلْيِ وَالْبَيْدَانَارَا

يقول: لو كنا غير مسلمين لرضينا ما عرض الملك، لكن عندنا رسالة أتينا لإتقاذ الناس، أتينا لبناء دولة العدل في العالم، أتينا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

هذا هو محمد إقبال، هذا الإبداع هذا الشاعر الفيلسوف الحكيم، وكان يحمل الدكتوراه العالمية في الأدب والفلسفة، عاش رديحاً من حياته في ألمانيا، يقول: كان أبي رجلاً صالحاً دخل علي وأنا أقرأ القرآن وعندي أختي الصغيرة ألعبها وأقرأ في المصحف، فقال أبوه: يا محمد، اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك، فقال: فهزني بهذه الكلمة، وبعدها كلما قرأت القرآن أبكي. لأن الواحد الأحد يخاطبك أنت من فوق سبع سماوات، من نحن حتى يخاطبنا الله ويرسل لنا هذا الكتاب مع هذا الرسول العظيم؟ لكن أكرمنا الله بهذا الكتاب.

فانظر كيف تربي على هذا القرآن، صحيح أنه ليس بعالم شرعي، لكنه شاعر، لكنه على كل مستوى العالم، وجعل كل قصائده وكل رسائله خدمة للإسلام.



oboeikendi.com

النهاية

لكل شيء نهاية، ولكل أمر انقضاء، ولكل حياة موت، والنهاية لا بد أن تقبلها وهي نهاية لهذه الحياة، وقد عبر عنها الحكماء والشعراء والفلاسفة كل على طريقته، وأفصح من ذلك وأعظم قول البياري **رحمة**: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِلَيْهِمْ مَمَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. لأن كفار قريش كانوا يترصبون بالرسول ﷺ الدوائر ويقولون: اتركوه سوف يموت. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَّا يَأْنِ يَمِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. إلا أن العواقب تختلف عند البياري **رحمة** فهي النهاية. ﴿وَلَا تَدْعُ

مَعَ اللَّهِ إِلَهَاءَ آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾
[الفصص: ٨٨].

الشاعر ابن عثيمين يرثي العجيلي العالم يقول:

هُوَ الْمَوْتُ مَا مِنْهُ مَلَادٌ وَمَهْرَبٌ مَتَى حُطَّ ذَا عَلَى النَّاسِ ذَاكَ يَرْكَبُ
نُؤْمِلُ آمَالًا وَتَرْجُو نَتَاجِهَا لَعَلَّ الرَّدَى مِمَّا تُرْجِيهِ أَقْرَبُ
وَبِنِي الْقُصُورِ الْمُشْمَخِرَاتِ فِي الْهُوَى وَفِي عَلْمِنَا أَنَا نَمُوتُ وَتُخْرَبُ
إِلَى اللَّهِ نَشْكُو قَسْوَةَ فِي قُلُوبِنَا وَفِي كُلِّ يَوْمٍ وَاعِظُ الْمَوْتِ يَنْدُبُ

عش ما شئت، فإنك ميت وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، ليست الخسارة أن يهدم قصر أو تهدم دار أو يحرق مال، الخسارة أن يموت رجل شهيم، إما عالم نافع نفع الله به أو سلطان عادل أو منفق كريم أو رجل عابد نفع الله بدعائه الأمة، يقول:

لَعَمْرُكَ مَا الرِّزِيَّةُ فَقَدْ مَالٍ وَلَا شِدَاةَ تَمُوتُ وَلَا بَعِيرُ
وَلَكِنَّ الرِّزِيَّةَ فَقَدْ شَهْمٍ يَمُوتُ لِمَوْتِهِ بِشَرِّ كَثِيرُ

هذه هي أعظم الرزايا التي تمر بالناس، وهي مصائب كبرى يتحملها الناس، ولذلك فإن بعض الناس إذا مات، فكأن القبيلة أو الأمة ماتت؛ لما جعل الله ^{تعالى} له من التأثير، حتى يقول أحد القادة يرثي:

مَنْ كَانَ مُغْتَبِطًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلَيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ
يَجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ فِي الْفَجْرِ عِنْدَ تَبَلُّدِ الْأَسْحَارِ

يقول: إن كنتم معتبطين فانظروا إلى البيوت وماذا حصل فيها. ولما مات خالد بن الوليد ^{رضي الله عنه} بكت النساء وارتفع العويل، فأتى عمر بن الخطاب ^{رضي الله عنه} فتأثر فقال الرجل: ألا تسكت النساء يا أمير المؤمنين؟ قال: «دَعُوهُنَّ، عَلَى مِثْلِ

أَبِي سُلَيْمَانَ قُلْتُبِكَ الْبُؤَاكِي». مات على الفراش وهو خاض مئة معركة ما كسرت له راية ولا فرّ ولا انهزم، قال: «لَقَدْ شَارَكْتُ فِي مِئَةِ مَعْرَكَةٍ، مَا فِي جِسْمِي مَوْطِنٌ شِبْرٍ إِلَّا فِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةٌ بِرُمْحٍ أَوْ رَمِيَّةٌ بِسَهْمٍ، وَهَذَا إِذَا أَمُوتَ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْبُعِيرُ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ». فلما خرجوا به قالت أخته فاطمة وهو على النعش:

أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ مِنَ الْقَوْمِ إِذَا مَا كَبَتَ وَجُوهُ الرِّجَالِ
وَمُهَيِّنٌ لِلنَّفْسِ الْعَزِيزَةِ بِالذِّكْرِ إِذَا مَا التَّقَتِ صُدُورُ الْعَوَالِي

فكل يرثي على طريقته. وإن أحسن ما أبدع فيه العرب هو الرثاء، حتى تقول الخنساء -رحمها الله- في أخيها صخر:

يُنْذِرُنِي طُلُوعَ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكَرُهُ لِكُلِّ غِيَابِ شَمْسٍ
وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُعْزِي النَفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

تقول: إني أراهم يبكون على القتلى، لكن ليسوا كصخر، فصخر شيء آخر. سطرّ فيه أحسن الملاحم.

ولما ماتت أخت سيف الدولة رثاها المتنبّي، يقول:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَزَعَتْ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكُذْبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعَ لِي صِدْقُهُ كَذِبًا شَرَفْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرُقَ بِي

والصاحب بن عباد كان عدواً للمتنبّي، وكان وزيراً من أشهر الوزراء، لكنه كان يكره المتنبّي حسداً وكانا متعاصرين، وكان المتنبّي لا يمدح إلا الملوك، أما

الوزراء فلا، وربما مدحهم، لكن رفض أن يمدح الصحاب بن عباد، فوقع بينهما ما وقع من خلاف، فقال الصحاب بن عباد لأهل إمرته وولايته: لا تستشهدوا بشعر المتنبى أبداً. فلما ماتت أخت الصحاب بن عباد أتته ستون رسالة من أمراء الأقاليم يبيتين للمتنبى قالهما في أخت سيف الدولة، وكلما فتح رسالة، وإذا في أولها:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَرَزَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكُذْبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ كَذِبًا شَرِقْتُ بِالْدَمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي

قال: هذا رجل أصبح مثل الشمس، أُنشِدُوا أشعاره.

وكان المتنبى يريد أن يذهب إلى عضد الدولة في شيراز، وفي طريقه الصحاب بن عباد، يمر به، فلا بد من أن يعطيه قذيفة من قصائده ثم يمضي، وكان في الطريق قاضٍ، والمتنبى يريد أن يُعرض بالصحاب بن عباد، فيقول:

دَوِ اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بُعْرَانَا
فَالْعَيْسُ أَعْقَلَ مِنْ قَوْمِ رَأَيْتُهُمْ عَمَّا رَأَاهُ مِنَ الْإِحْسَانِ عُمَيَّانَا
عَبْدٌ فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي فَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَاهْوَانَا
كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطْنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحْسَدُ الْفُضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِهِ يُغْتَابُ سِرًّا وَيُثْنَى فِيهِ إِعْلَانَا

فالجواد إذا حضر مدحه الناس، وإذا غاب اغتابوه، وهذا هو السيد. قيل للأحنف بن قيس: من هو السيد؟ قال: مَنْ إِذَا قَدِمَ هَابُوهُ، وَإِذَا أُدْبِرَ اغْتَابُوهُ. والناس لا ترمي إلا الشجر المثمر.

وأذكر من قصص الموت وقصص الرثاء أبياتا في رثاء الحسين بن علي عليه السلام وأنا لله وأنا إليه راجعون، يقول ابن تيمية: ينبغي لكل مسلم إذا ذكر قاتل الحسين

أن يترجع ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. فإنها مصيبة من أعظم المصائب، فأحسن الله عزاءنا في مصيبة قتل الحسين بن علي، فلما قُتِلَ كبر وهلل أحد الجهلة ممن قتلوه، فقال الشاعر:

جَاؤُوا بِرَأْسِكَ يَا ابْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ مُتَزَمِّمًا بِدِمَائِهِ تَزَمِيمًا
وَيُكَبِّرُونَ بِأَنْ قُتِلْتَ وَإِنَّمَا قَتَلُوا بِكَ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلًا

فأصل التكبير والتهليل خرج من بيت الرسول ﷺ.

وصاحب الحماسة أبو تمام له مرثية، ومن مرثيته لما قُتِلَ أحد الأعيان قوله:

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِغَالِي دَمْعَهَا لَجْمُودُ

إذا ما بكت العين في المناسبة، فمتى؟!

يقول أبو الطيب في محمد بن حميد:

كَذَا فَلْيَجِلْ الخُطْبُ وَلْيَفْذَحِ الأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عَذْرُ

فإذا لم تدمع العين على الأخيار والأبرار والصلحاء وأشباههم، فعلى من

تبكي؟ هؤلاء هم الذي يستحقون أن يبكي عليهم، ولكن ربما يتصبر الإنسان، ثم

لا يستطيع أمام الحدث الذي أمامه، ولذلك قال جرير لما ماتت زوجته:

لَوْلَا الحَيَاءُ لَهَا جِنِي اسْتِعْبَارُ وَلَكُرْرُتُ قَبْرِكَ وَالْحَبِيبُ يُرَارُ
وَلَقَدْ نَظَرْتُ وَمَا تَمَتَّعَ نَظْرَةَ فِي القَبْرِ حَيْثُ تَمَكَّنَ الإخْفَارُ

فيقول: ما استطعت أن أكنم شجوني ولا دموعي وأهاتي ولا زفراتي على تلك

الصحة، فاندفعت باكيًا.

ومن أحسن قصائد ابن الرومي الجيمية المطربة المنعشة، رثى فيها خديد ابن عمر من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قتله العباسيون، خرج عليهم في ثورة وقتلوه، وكان ابن الرومي متشيعاً من أهل البيت، قال:

أَمَامَكَ فَانظُرْ أَيُّ نَهْجِكَ تَنْهَجُ	طَرِيقَانِ شَتَى مُسْتَقِيمٍ وَأَعْوَجُ
أَبَيْتُ إِذَا نَامَ الْحَلِيُّ كَأَنَّمَا	تَبَطَّنَ أَجْفَانِي سَيَالٌ وَعَوْسَجُ
أُحْيِي الْعُلَى لَهْفِي بِمَثْوَاكَ لَهْفَةً	يُبَاشِرُ مَكْوَاهَا الْفُؤَادُ فَتَنْضَجُ
بِنَفْسِي وَإِنْ فَاتَ الضَّدَاءُ بِكَ الرَّدَى	مَحَاسِنُكَ الْإِلَاطِي تُمَحُّ فَتَنْهَجُ

إلى أن يقول:

مَتَى تَسْتَعِيدُ الْأَرْضُ ثُوبَ جَمَالِهَا	فَتَبْرُزُ فِي أَسْوَابِهَا تَتْبَهْرُجُ
--	--

يقول: انتهت زهرة الدنيا وانتهى بهاؤها ومات الحسن معك فما عاد الاستقرار فيها.

عَضَاءٌ عَلَى دُنْيَا رَحَلَتْ لِغَيْرِهَا	فَلَيْسَ بِهَا لِلصَّالِحِينَ مُعْرَجُ
أَلَا أَيُّهَا الْمُسْتَبْشِرُونَ بِيَوْمِهِ	أَظَلَّتْ عَلَيْكُمْ غُمَّةٌ لَا تُفْرَجُ
أَكَلْتُمْ أَمْسَى اطْمَأَنَّ مِهَادُهُ	بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِي الْقَبْرِ مُزْعَجُ
فَلَا تَشْمَتُوا وَلِيخْسَابِ الْمَرْءِ مِنْكُمْ	بِوَجْهِهْ كَأَنَّ اللَّوْنَ مِنْهُ الْيَرْنَدُجُ
فَلَوْ شَهِدَ الْهَيْجَا بِقَلْبِ أَبِيكُمْ	غَدَاةَ النَّقَى الْجَمْعَانَ وَالْخَيْلُ تَمْعَجُ
لَأَعْطَى يَدَ الْعَانِي أَوْ أَرْمَدَ هَارِباً	كَمَا أَرْمَدَ بِالقَاعِ الظَّلِيمِ الْمُهَيِّجُ
وَلَكِنَّهُ مَا زَالَ يَغْشَى بِنَحْرِهِ	شَبَابَ الْحَرْبِ حَتَّى قَالَ ذُو الْجَهْلِ أَهْوَجُ
كَأَنِّي بِهِ كَاللَيْثِ يَحْمِي عَرِينَهُ	وَأَشْبَالَهُ لَا يَزُدُّهِمِ الْمُهَجِّجُ
يَكْرَهُ عَلَيَّ أَعْدَائِهِ كَرُّ دَائِرِ	وَيَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَلَا يَتَخَلَّجُ
كَدَابِ عِلْيَ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا	أَبِي حَسَنٍ وَالْغُصْنُ مِنْ حَيْثُ يَخْرُجُ

يقول: جدك علي قُتِل والحسين قُتِل، كلكم على هذا الطريق. ثم يقول: إنك مع الغصن كالشجرة المباركة. حتى يقول يهدد بني العباس:

سَيُصْغِي لَكُمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ نَاصِرٌ وَلِلَّهِ أَوْسَىٰ آخِرُونَ وَخَزْرَجٌ

وهي أكثر من ثمانين بيتاً، وهي من أحسن قصائد ابن الرومي. وهذا إذا شاء أن يرسل الحرف أرسله، فهو صاحب الكلمات المشهورة، حتى إنه مات لما سمه عبيد الله بن الوزير لأنه هجاه، فعندها استدعاه للغداء ورحب به وقال له الطيب: دسّ له السم ودعه يمت، ففعل، فلما أحس ابن الرومي بالسم عرف أن عبيد الله سمه فذهب إلى بيت الخلاء (دورة المياه) قال: أين تذهب يا ابن الرومي؟ قال: إلى المكان الذي أرسلتني إليه. فيقول في الطريق:

غَلَطَ الطَّبِيبُ عَلَيَّ غَلَطَةً مَوْرِدٍ صَارَتْ مَوَارِدُهَا مَعَ الْأَصْلَابِ

وأذكر من أمهات المراثي قصيدة دريد بن الصمة القشيري يرثي أخاه عبد الله، فبنو عارض قبيلة دريد وأخيه تواعدوا مع قوم، فقال لأخيه: لا تقم دونهم. أي: إن الأعداء أكثر، فهم نحو ألفين ونحن قليل ما يقرب من مئتين إلى أربع مئة، فرفض رأي دريد؛ إذ كان شجاعاً مقداماً، لكن الرأي كان مع دريد، وخرجوا لهم وخرج أخوه معهم، ولما دارت المعركة وأولئك أكثر قُتِل أخوه عبد الله، قاتل دريد معه، حتى سقط معه جريحاً، فرفعا كلاهما عند أمهما؛ هذا مقتول وهذا مجروح، فقالت: ما أخباركما يا دريد؟ فقال:

أَعَادِلَ مَهَلًا بَعْضُ لَوْمِكِ وَأَقْصِدِي وَإِنْ كَانَ عَلِمَ الْغَيْبِ عِنْدَكَ فَارْشِدِي
وَقُلْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ وَرَهْطِ بَنِي السُّودَاءِ وَالْقَوْمِ شُهْدِي
عِلَانِيَةً ظَنُّوا بِالْأَفْيِ مُدَجِّجٍ سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرِّدِ
وَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ الْأَحَابِيفَ أَصْبَحَتْ مُطَنَّبَةً بَيْنَ السُّتَارِ فَتُهُمِدِ

فَمَا فَتَتُوا حَتَّى رَأَوْهَا مُغِيرَةً كَرَجَلِ الدَّبِي فِي كُلِّ رُبْعٍ وَفَنَدِ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الخَيْلَ قَبْلًا كَأَنَّهَا جَرَادٌ يُبَارِي وَجْهَةَ الرِّيحِ مُغْتَدِي

يقول: سوف يأتيكم القوم بالفي مسلح، معهم من الخناجر والسيوف والدروع الكثير. فما صدقوني، حتى رأوها عياناً.

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمَنْعَرِجِ اللُّوِي فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الأَمْرَ إِلاَّ ضَحَى الغَدِ
منعرج اللوي: مكان.

وَهَلْ أَنَا إِلاَّ مِنْ غُرِيَّةٍ إِنْ غَوْتُ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشُدٌ غُرِيَّةٌ أُرْشِدُ
دَعَانِي أَخِي وَالخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِعُغْدِ
أَخِي أَرْضَعْتَنِي أُمُّهُ بِلِبَانِهَا بِئْسَ صَفَاءَ بَيْنَنَا لَمْ يُقَدِّدِ

يقول: سمع صوت أخيه: يا دريد. لأنهم رشقوه بالرماح وكان بطلاً فصاح بأخيه لما أحس بضرب الرماح من كل جهة، فأتى وإذا الخيل بينه وبينه، فلما دعاني ما إن سمعت صوته، حتى هببت كالأسد الكاسر:

فَجِئْتُ إِلَيْهِ وَالرِّمَاحُ تَنُوشُهُ كَوَقْعِ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيحِ المُمَدِّ
وَكُنْتُ كَذَاتِ الأبُو رِيَعْتُ فَأَقْبَلْتُ إِلَى جِلْدٍ مِنْ مَسْكِ سَقْبٍ مُقَدِّ
فَطَاعَنْتُ عَنْهُ الخَيْلَ حَتَّى تَبَدَّدْتُ وَحَتَّى عَلَانِي حَالِكُ اللُّونِ أَسُودِ
فَمَا رِمْتُ حَتَّى خَرَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ

يقول: فأخذت أضرب الخيل وأطعنها؛ لأفتح طريقاً، وأصل إلى أخي، وصارت ثيابي كلها حمراء من كثرة الطعن من كل جهة.

قِتَالِ أَمْرِي أَسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَيَعْلَمُ إِنْ المَرءِ غَيْرُ مُخَلِّدِ

تَنَادُوا فَقَالُوا أَزْدَتِ الْخَيْلُ فَارِسًا
 فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ
 وَلَا بَرِّمًا إِذَا الرِّيَّاحُ تَنَادَوْحَتْ
 قَلِيلٌ تَشْكِيهِ الْمُصِيبَاتِ حَافِظٌ
 فَقُلْتُ: أَعْبُدُ اللَّهَ ذَلِكُمْ الرَّدِّي
 فَمَا كَانَ وَقَافًا وَلَا طَائِشَ الْيَدِ
 بَرَطِبِ الْعِضَاهِ وَالْهَشِيمِ الْمُعْضُدِ
 مِنْ الْيَوْمِ أَعْقَابِ الْأَحَادِيثِ فِي غَدِ

فيقول: وقفت على أخي وإذا هو مُصْرَعٌ، فقال: والله إنني صرعت معه وطُيْتُ
 معه، وأمه تبيكي، وهو يعلمها ويخبرها.

أَخِي أَرْضَعْتَنِي أُمُّهُ بِلِبَانِهَا
 بِثَدْيِي صَفَاءِ بَيْنِنَا لَمْ يُقَدِّدِ

وحاتم كان له أخ، وكان أخوه بخيلاً، وحاتم أكرم الناس، فقال أخوه: أنا
 أكرم منك. قالت أمه: كذبت. قال: لماذا؟ قالت: حاتم أكرم منك وهو طفل. قال:
 كيف؟ قالت: حاتم كان يرضع مع ابن فلانة الذي ماتت أمه، فإذا رفع اليتيم عن
 ثديي رفع حاتم عن الثدي، وإذا رضع رضع معه، فلا يرضع إلا معه، وأنت كنت
 ترضع معه، فإذا رضع هو بكيت أنت. فوصفته بالبخل.

وَحُفِّفَ وَجُدِي أَنْبِي لَمْ أَقُلْ لَهُ:
 كَذَبْتُ وَلَمْ أَبْخُلْ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي
 فَإِنْ تُعْقِبِ الْأَيَّامُ وَالِدَهُرُ تَعْلَمُوا
 بَنِي قَدَارِبِ أَنَا غِضَابٌ بِمَعْبَدِ

فيقول: إن الذي عزاني أني ما قلت لأخي مرة في الحياة: كذبت. ولا بخلت
 عليه بشيء.



oboeikendi.com

الشعر والزُهْم

سجل الشعراء حكمهم في الدنيا، بعد أن
جربوا وعرفوا فناء هذه الدنيا؛ لأن الماشي فيها
يعتر، كما يقول المتنبي:

تَحْلُو الْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ
عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ
وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ
وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَتَقْنَعُ

فيقول: لا ينخدع في الحياة الدنيا إلا
الجاهل، مثل الشاب الذي ما جرب، لكن تجد

الحكماء والشيوخ الكبار ومن شاب وأصبح ذا معرفة وجاءته موجعات من الدنيا ومات أصحابه، وينظر كيف تتغير، وإذا الأغنياء يقترون، وإذا الحوادث تحصل، حتى يقول أحدهم:

وَمَنْ كَمَدَتْ فِيهِ النَّهْيُ لَا يَسْرُهُ نَعِيمٌ وَلَا يَرْتَاغُ لِلْحَدَثَانِ

فهم سجلوا هذه الخيرات، حتى المتنبى يقول:

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدٍ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذِّبٌ

فتجد صاحب الهمة معذباً في الدنيا، فلذلك أوصى القرآن بالزهد في الدنيا ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَأْذِنُكُمُ أَمْوَالُكُمْ ﴾ [محمد: ٣٦] ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ۗ ﴾ ﴿ حَقَّ زُرْمُ الْمُقَابِرِ ﴾ [التكاثر: ١-٢] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ التَّكَاثُرِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. لكن ليس المقصود منها أن تضيع أموالك، وألا تستخدمها في طاعة الله، بل المقصود أن تجعلها في يدك لا في قلبك، وأن تستعين بها على طاعة الله، وألا تمنع الحقوق التي وجبت عليك، وألا تبخل بالمعروف بين الناس، وإلا فقد كان في الصحابة رضي الله عنهم أغنياء وأسخياء يجودون بالمال، فينبغي أن يعرف الإنسان ذلك، كقوله رضي الله عنه في صحيح البخاري لابن عمر رضي الله عنهما: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

فأكثر الشعراء أصدروا حكمة في هذا الباب، ومنهم عمران بن حطان شاعر خارجي، لكنه من أقوى الشعراء شعراً، له كلمة لاغية وإنه كان على مذهب الخوارج الذين أيدوا قتل علي رضي الله عنه أبي الحسن أمير المؤمنين، حتى لما قتله عبد الرحمن ابن ملجم يقول عمران بن حطان:

يَا ضَرْبَةَ مَنْ تَقِي مَا أَرَادَ بِهَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسَبُهُ
إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانًا
مِنْ خَيْرِ خَلْقِ عِبَادِ اللَّهِ مِيزَانًا

فرد عليه شاعر السنة، فقال:

يَا ضَرْبَةَ مَنْ شَقِي مَا أَرَادَ بِهَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا وَأَلْعَنُهُ
إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ حُسْرَانًا
وَأَلْعَنُ الْكَلْبَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَ

وعمران يقول في حكمة له عن الدنيا:

أَرَى أَشَقِيَاءَ النَّاسِ لَا يَسْأَمُونَهَا
أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تَسْرُ فَإِنَّهَا
عَلَى أَنَّهُمْ فِيهَا عُرَاءٌ وَجُوعٌ
سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ

يقول: الأغبياء دائماً مغرورون بالدنيا. فيغتر أحدهم باللباس ويغتر بالسيارة وبالمنصب ويفرح بالوظيفة، هي غرور كلعبة الأطفال، وهي مسرحية ولكنك لو فكرت بعقل لسألت: أين الملوك؟ وأين الدول؟ أين الذين كانوا معنا وازدانت بهم المجالس؟ أين شبابهم وأنسهم؟ أصبحوا أخباراً، فكل الشعراء يتواصون بذلك، وكان أحدهم يقول:

خُبِّدِ الْقَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَا
وَأَنْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا رَاحَةُ الْبَدَنِ
هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الطِّيبِ وَالْكَفْنِ

هل رأيتم تاجراً كبيراً ذهب بأرصده وسياراته وبالمليارات؟ لا، يذهب مجرداً بالطيب والكفن، وعند الترمذي يقول عليه السلام: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سَرِيهِ، مُعَافَى فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوَّتُهُ وَقُوَّتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا». ولذلك يقول أحد الزهاد:

الْجُوعُ يُدْفَعُ بِالرَّغِيفِ الْيَابِسِ فَعَادِمٌ أَكْثَرُ حَسْرَتِي وَوَسَاوِسِي ١٩

خبزة تشبع، وكأنك أغنى الناس، تشرب ماء وتنام على الحصير، هذه هي الدنيا، حتى يقول ابن فارس النحوي:

مَاءٌ وَخُبْزٌ رَوْظِلٌ ذَاكَ النَّعِيمُ الْأَجَلُ
كَفَّرْتُ نِعْمَةً رَبِّي إِنَّ قُلْتُ: إِنِّي مُقْبِلٌ

عندك خبز وعندك ماء وعندك حصير تنام عليه فأنت ملك.

يقول أحدهم:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٍ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
طُبِعَتْ عَلَى كَدْرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَنُودَ نَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبَكَّتْ غَدًا قُبْحًا لَهَا مِنْ دَارِ
مَا زَادَ فَوْقَ الزَّادِ خُلْفَ ضَائِعًا فِي وَارِثٍ أَوْ نَاجِمٍ أَوْ عَارِ

هذه الحياة الدنيا، فينبغي أن تأخذ هذه الحكم وتكسيها في حياتك من أناس جربوا العلم وشعر الحكمة، صاحب الحكمة أخذها عن علم ومعرفة، فلا بد من أن تستفيد أنت وتستثمرها في حياتك، وفي قصيدة لي قلت:

دُنْيَاكَ تَزْهُو وَلَا تَدْرِي بِمَا فِيهَا إِيَّاكَ إِيَّاكَ لَا تَأْمَنُ عَوَادِيهَا
تَحْلُو الْحَيَاةُ لِأَجْيَالٍ فَتُنْعِشُهُمْ وَيُسْرِكُ الْمَوْتَ أَجْيَالًا فَيُفْنِيهَا
عَارِيَةُ الْمَالِ قَدْ رُدَّتْ لِصَاحِبِهَا وَأَكْلُفُ الْبَيْتِ قَدْ عَادَتْ لِبَانِيهَا
يَا رَبُّ، نَفْسِي كَبَتْ مِمَّا أَلَمَ بِهَا فَزَكِّهَا- يَا كَرِيمَ- أَنْتَ هَادِيهَا

هَامَتْ إِلَيْكَ فَلَمَّا أُجْهِدَتْ تَعَبًا رَنَتْ إِلَيْكَ فَحَدَّتْ قَبْلَ حَادِيهَا
إِذَا تَشَكَّتْ كَاللَّاحِ السَّيْلِ أَسْعَفَهَا شَوْقُ الضُّومِ فَتَدْنِي فِي تَدَانِيهَا

فحالة الدنيا أنها لا يغتر بها إلا كل مخدوع.

المهدي الخليفة العباسي ابن أبي جعفر المنصور كان في الليل يسمر، وجاءه وشاة السوء وجلساء السوء وقالوا: إن فلان بن موسى - أحد أهل البيت من ذرية علي بن طالب عليه السلام كان عابداً زاهداً ناسكاً يصلي في الليل - يخطط لقلب نظامك وأخذ الملك. فأخذ العسس والشرطة وقال: اقتحموا عليه في منزله واقتادوه في النور. وأتوا وإذا هو على سجادته مستقبل القبلة ودموعه قد بليت لحيته، وهو يقرأ القرآن، فأخذوه إلى المهدي، فلما دخل المهدي قال: سمعنا أنك تريد ملكنا وخلافتنا. قال: والله لا يرضيني إلا ملك في جنات النعيم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعْمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢٠]. والله ما فكرت في الليل والنهار، والله ما سألت ملكك في سر ولا علانية. ثم أنشده قصيدة عن الملوك وعن الخلفاء:

بَاتُوا عَلَى قَوْلِ أَذْبَالٍ وَتَحْرُسُهُمْ غَلَبَ الرِّجَالِ فَمَا أَعْنَتُهُمُ الثُّقُلُ
وَاسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى مَقَابِرِهِمْ يَا بئْسَ مَا نَزَلُوا
كَأَدَّتْ أَسْرَتُهُمْ تَرْوِي وَأَحْقِيَّةً مِنْ دُونِهَا تُضْرِبُ الْأَسْتَارُ وَالْكَفْلُ
أَضَحَّتْ ضَعِيفَةً عِنْدَ الضَّيْقِ رَاكِعَةً فِيهَا وَمِنْهَا عَلَيْهَا الدُّودُ يَقْتَتِلُ

فيكى المهدي، حتى كادت أضلاعه تختلف، وقال: سامحني، روعناك في هذه الليلة. وطلب منه السماح وردّه إلى سجّادته وعبادته، فهذه حال الدنيا، حتى يقول أبو البقاء الرندي:

أَيْنَ الْمُلُوكِ ذُوو التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنِ
وَأَيْنَ مَا شَدَّادُهُ شَدَّادُ فِي إِرَمِ
وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكْبَالِيْلٌ وَتَيْجَانُ
وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ
حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا عِزَاءَ لَهُ

أين من شاد، ومن ساد؟ أين من ولي وعزل؟ أين من أخذ؟ أين من أعطى؟
أين من أهدى؟ أين الجحافل؟ أين الجنود؟ أين البنود؟ أين الأعلام؟ وأين أقواس
النصر والابتهاجات والاحتفالات؟ كأنها حلم رأيتها في منامك، ثم استيقظت،
وهي لا شيء، فما هو المطلوب؟ ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتِ وَمَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ
عِنْدَ مَلِيكٍ مُقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

ابن تيمية دُعي إلى السلطان السلجوقي في دمشق، قال ابن تيمية: يقول الناس:
إنك تريد ملكنا. قال: ملكك أنت؟ والله ما ملكك وملك آبائك وأجدادك يساوي
عندي فلساً؟ قال: ولم؟ قال: أريد جنة عرضها السموات والأرض. لأن الله عز وجل ذكر
في الجنة: خلود بلا موت، شباب بلا هرم، صحة بلا سقم، أمن بلا خوف، غنى بلا
فقر، يوم ينادي المنادي: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا
فَلَا تَهَرَّمُوا أَبَدًا». ولذلك قال الشاعر:

فَاعْمَلْ لِدَارِ عَدَا رِضْوَانِ حَارِثِهَا
وَسُورُهَا ذَهَبٌ وَالْمِسْكُ تُرْبَتُهَا
الْحَبَارُ أَحْمَدُ وَالرَّحْمَنُ بَانِيهَا
وَالزُّعْفَرَانُ حَشِيشٌ ذَابَتْ فِيهَا

فتسيحة تعرس لك شجرة، وتسيحة تبني لك لبنة، لبنة من فضة ولبنة من
ذهب، وأقل منازل أهل الدنيا في الجنة عشرة أمثال الدنيا، فاعمل لتلك الدار،
وخذ الحكمة من الشعراء الذين عرفوا هذه الدار وعرفوا مصيرها وعرفوا نهايتها
ونطقوا بها وأنها فانية وأنها منقضية، وأنها أحلام نائم، يستيقظ المرء فلا يجد

عنده شيئاً، ولذلك كانوا يعظون، حتى إن الواسطي وعظ نور الدين محمود، فقال:
مَثَلُ نَفْسِكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ.

ونور الدين محمود زكي هذا من العدول وكان الخليفة السادس من الخلفاء الراشدين، بعد عمر بن عبد العزيز وكان مثلاً في العدل والإيمان والتقوى، حتى مدحه مؤرخ الإسلام الذهبي وابن كثير والعلماء، وأطنب العلماء على ذكره، وطلب من الله الشهادة فرزقه الشهادة، وكان يقوم الثلث الأخير من الليل وكان يحكم الشام والجزيرة ومصر واليمن والعراق وهو تركماني؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآئِنَّا فَكَلَّمْنَا بِمَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. الإسلام ليس جكراً على أحد، فالذي ينصر الإسلام يتفضل مأجوراً ومشكوراً، بلال بن رباح نصر الإسلام وهو مولى حبشي فدخل الجنة، وأبولهب الهاشمي القرشي دخل النار.

ولذلك يقول الواسطي يعظ نور الدين، وذلك يوم مهرجان كبير، فأراد أن يعظ في يوم لا أحد يستطيع أن يرده، فيأتي يوم المهرجان ومعه عصا قديمة وهو شيخ كبير مهيب. يقول أحد السلاطين: والله إنني رأيت الأسد في الغابة ورأيت البحر إذا هاج وإنني ما خفت مثلما خفت من الواسطي. فيقدم في المهرجان وهم يلقون فقرات الحفل فيقطع الحفل ويدخل، وينتصف في المنصة ويقول لنور الدين محمود وهو فوق المنصة جالس والناس والأمراء والوزراء والجيوش أمامه وخلفه، فقال:

مَثَلُ نَفْسِكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
فَإِنْ قِيلَ: نُورُ الدِّينِ جَاءَ مُسَلِّمًا فَاحْذَرِ بَأْنَ تَأْتِي وَمَا لَكَ نُورُ

ونور الدين محمود حرم الخمر، فلا يباع في دولته كلها، لكن بعض الحاشية قد يرتشون، وسمع ذلك، فقال:

حَرُمْتَ كَاسَاتِ الْمُدَامِ تَعَفُّفًا وَعَلَيْكَ كَاسَاتُ الْحَرَامِ تَدُورُ
يَوْمًا تَشِيبُ لَهُوَلِهِ الْوِلْدَانُ مِنْ فَرَزَعٍ وَيَأْكُلُ كَفْهَهُ الْمَثْبُورُ
هَذَا بِإِلَّا ذَنْبٍ يَخَافُ لَهُوَلِهِ كَيْفَ الَّذِي مَرَّتْ عَلَيْهِ دُهُورُ

يقول: الطفل يخاف ويشيب ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]. فكيف الذي مرت عليه دهور؟ وكان نور الدين يسمع ويتحرك ويرتفع عنده الضغط ويغمى عليه ويسقط من على الكرسي أمام الناس، ورشه الناس وأجلسوه وقطعوا الحفل.

هذه حال الدنيا، فحري بنا الانتهاء عن غينا، فأنصح الشباب أن يقرؤوا الحكمة وأن يطالعوا الكتب، وأنا كنت مثلهم، كنت أعجب من الحفلات والمهرجانات، وإذا رأيت القصور والدور والحدائق قلت: ما هذا النعيم؟ يا لحظهم يا لقرة عيونهم! ولما قرأت القرآن والحديث ومعانيه وكلام الحكماء وكلام المجريين والشعراء وإذا الدنيا مسرحية وحلم في المنام، ونرى الرجل الزعيم يذهب ثم يُدس في التراب، ثم يعود الناس كلهم والحاشية والمواكب وقد نسوه، ويذهب العالم الكبير وكأنه ما درس وما ألف وما علم، والغني يُجرّد من كل شيء.

وقد عزيت في تاجر كبير، عنده سبع شركات أي: عنده مليارات، جُرّد من ملابسه وجُرّد من أشياءه ودخل قبره وحيداً ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وهذا منهج القرآن، فهل ذهب أحد بشيء؟

الشعر والزهد

الشاهد أن الشعر يرسل رسائل من الزهد لمن كان له قلب أو ألقى السمع
وهو شهيد، وشعر الحكمة يشارك نصوص الكتاب ونصوص السنة، فكان على
الإنسان ألا يغتر ولا ينخدع، فأنا لا أدعو للتقشف المزري في مثل هذا، بل أدعو
للزهد الصحيح على منهج الكتاب والسنة منهج محمد ﷺ.



oboeikendi.com

البخل

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧]. وقال ﴿هَاتَتْهُمُ هُنَّوَلَاءُ
تُدْعَوْنَ لِيُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ
يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ
الْعَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

البخيل مذموم في الدنيا والآخرة ومذموم في
الأرض وفي السماء ويكرهه كل أحد، والبخل خلق

ذميم، حتى إن البيخل تظهر معائبه مضخمة عند الناس، فلا يقبلون له عذراً ولا يرحبون به ولا يفرحون بقدمه، والبيخل يكون بطلاقة الوجه والبيخل بالمال والبيخل بالطعام والبيخل بالضيافة والبيخل بالجاه، والشعراء أخذوا هذا الجانب بالتهكم بالبخلاء، ومنهم الحطبيّة في الزبرقان الذي كان عاملاً لعمر رضي الله عنه على الصدقات، والزبرقان فيه خير بلا شك، لكنه غاب عن ضيافة الحطبيّة، فخلفه الحطبيّة عند أسرته وما ضيفوه، فأطلق أبياتاً في الزبرقان يقول فيها:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

وهذا من القصيدة التي يقول فيها:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

فشكاه الزبرقان عند عمر رضي الله عنه فاشترى عمر منه أعراض الناس بعدما حبسه، ثم أطلقه بعدما تعهد له ألا يعود، والشاهد في الباب أنه بوابة عظيمة للتهكم.

وأحد العلماء مر برجل اسمه عثمان، وكان عثمان مشهوراً بالبيخل وكان عنده مقهى، فقال: أريد كأس شاي. فقال: لم نصنع اليوم شيئاً. لأنه يبيع بيعاً ويعلم أن الشيخ لا يملك الثمن. قال: نريد ماء على الأقل. قال: حتى الماء ما وضعناه في البرادة. فقال:

الْمَاءُ فِي بَيْتِ عُثْمَانَ لَهُ كَمَنْ وَالشَّايُ يَا صَاحِ، لَا يُسْقَى لِإِنْسَانٍ
فَاتُّظِلُّ عَلَى كُلِّ عُثْمَانَ تُلَاقِيهِ إِلَّا الْخَلِيْفَةَ عُثْمَانَ بَيْنَ عَضَانِ

حتى إن المتنبّي يلوم كافوراً فيقول:

جَوْعَانُ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيَحْبِسُنِي لَكِي يُقَالُ: عَظِيمُ الْقَنْرِ مَقْصُودُ

يقول: هو حبسني في مصر، فهو يأكل من عيشتي ما أعطاني شيئاً، ويقول:

جُودُ الرُّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي وَجُودُهُمْ مِنَ اللُّسَانِ فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ

التي مطلعها:

عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتُ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى أَمْ لِأَمْرِ فَيْكَ تَجْدِيدُ

يقول: إن كافور جوعان يأكل من معيشتي ويمعني من السفر؛ كي يقال: إني قصدته في مصر وإنه عظيم القدر مقصود، وإنما جوده مواعيد فقط باللسان. فبعض الناس يعدك ويمنيك الأمانى، لكن إذا أتيت إلى الحقائق، فلا تظفر منه بشيء، حتى إن بعضهم يبخل على نفسه في لباسه وفي طعامه وفي إنفاقه.

فينبغي للإنسان أن يحتاط من هذا، ويكون سخياً جواداً، وليعلم أن من أفضل صفات سيد الخلق ﷺ الكرم، الذي ما سُمِعَ بأكرم منه ﷺ حتى يقول جابر رضي الله عنه: «مَا قَالَ ﷺ: لَا. أَبَدًا».

اللَّيْمُ يُعْرَفُ بِعَلَامَاتٍ، مِنْهَا أَنَّهُ يَكْتَسِبُ إِذَا دَخَلَ الضَّيْفَ عِنْدَهُ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يُغْلِقُ عَلَيْهِ الْكَلَامَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَمِنْهَا أَنْ يَشْتَدَّ وَيَغْضَبُ مِنْ أَبْنَائِهِ فَيَصِيحُ عَلَيْهِمْ وَيَدْعُو عَلَيْهِمْ بِالْوَيْلِ وَالشُّورِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يَضْخَمُ الْمَسْأَلَةَ، فَإِذَا ذَبَحَ شَاةً أَوْ خُرُوفًا بَدَأَ يُخْبِرُكَ كَيْفَ هَذَا وَهَذَا الْوَادِي وَمَاذَا نَعْمَلُ بِالْمَالِ إِذَا مَا أَكْرَمْنَا وَحَقَّ عَلَيْنَا، وَيَقُولُ: لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي دُنْيَانَا إِذَا مَا أَكْرَمْنَا. وَيُخْبِرُكَ مَتَى كَانَ مِيلَادُ هَذَا، حَتَّىٰ إِنْهُمْ يَقُولُونَ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْخُلُ بِسَكِينٍ، وَيُخْرِجُ فَنَعْلَمُ أَنَّهُ بَخِيلٌ. لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَمَّا أَنَاهُ الْمَلَائِكَةُ قَالُوا: ﴿فَرَأَيْتَ إِنْ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [النار: ٢٦]، حتى يقول الشاعر:

أُحَادِثُ ضَيْفِي قَبْلَ أَنْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَكَانُ جَدِيدُ
وَمَا الْخُصْبُ لِلأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

أذكر أن الشاعر المشهور حميد الدوسري له قصيدة شعبية عارضتها بقصيدة ثانية، يقول في أحد البغلاء:

والله لا يرحم مثاويك يا النذل البخيل

الله لا يبقى على الأرض من الرديان أحد

فقلت أنا:

وارضنا تبهج لمقدمك والشاخص يميل

يبرق البارق إذا جيت ويرعد الرعد

كن قولك منهل بارد من سلسبيل

الله من قلب على نغمتك قام وقعد

ضاع فيهم مسكوا الطعم طعم الزنجبيل

أو كما ألعاب خود على المبسم برد

وجعل قلب ما يحبك يقطع بالثقليل

جعل عين تنضلك في لونها فيها الرمد

اقصر الهقوات تكفى ترى المسرى طويل

وش بعد تبغى نحدثك عنا وش بعد

هايج ومايج بهيج على دجله ونيل

الله من علم وشعر بصدري له زبد

قام يضرب بي بعجر هو انا جسي نحيل

كل ما قامت احبسه يا قصيدي هدهد

الشاهد في هذا أن البخيل يسرع إليه الذم واللوم من الناس، حتى إنهم دخلوا على بخيل، فقام البخيل يعتذر ويكلم ابنه ويأتي ويذهب وما قدم شيئاً لا طعام ولا غيره، قال أحدهم:

مِنْ غَيْرِ مَا مَعْنَى وَلَا فَائِدَةَ

يَا فَائِمًا فِي بَيْتِهِ قَاعِدًا

فَأَقْرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ

قَدْ مَاتَ أَضْيَافُكَ مِنْ جُوعِهِمْ

لأن المائدة هي الطعام، يقول: ائت لنا بطعام.

والجاحظ ألف كتاباً في ذلك والخطيب البغدادي كذلك، حتى إن كتابه يأخذ بالألباب من بلاغته، وقد يبالغ ويأتي بأشياء، لكن أصل القصص موجودة في طبائع الناس.

فمنهم من يقول: من أبخل الناس أهل مرو. فهؤلاء إذا أتيت أحدهم في الليل سألك: هل تناولت وجبة العشاء؟ فنقول: نعم. فيقول: ليتك ما تعشيت؛ لتشاركنا

في عشائنا. فإن قلت: لا، أنا جوعان. قالوا: لو أنك تعشيت لشربت معنا من العصير. فلا شربت العصير ولا تعشيت معهم، وهذه من حيلهم.

يقولون: إن أبا الأسود الدؤلي كان مشهوراً بالبخل، حتى جاءه غريب مرة فدخل البيت بلا إذن، أي: غفل هو عن الباب. فإنه كان متحفظاً ومتحرزاً ويغلق الباب وليس عنده جرس عند الباب ولا يكتب اسمه ويتخفى، فأبو الأسود غفل ونسي الباب فدخل رجل من الغرباء المسافرين المنقطعين فوجد المائدة قد صُفّت فجلس وأكل معهم، فلما أكل قال: في أمان الله، أستودعكم الله. قال: إلى أين؟ قال: أريد أن أذهب. قال: أكلت عشائنا وتريد أن تذهب وتخيف أناساً غيرنا؟ والله لا تذهب وأتركك تؤذي عباد الله؟ فشده بحبل بيده ورجله وربطه بالباب وقال: حتى لا تؤذي عباد الله.

ومن ذلك الجاحظ يقول: جلس أحد البخلاء على مائدة فقدموا الجدي، فانطلق أحد الضيوف على الجدي فأزال جنبه الأيمن ثم على الأيسر ثم ظهره، وصاحب البيت يتميز من الغيظ، تحطم وانتهى وغازط، قال: أراك صاحب عداوة، كأن أم هذا انطحتك فتريد أن تنتقم منها. قال: والله إنني رأيت شفقتك عليه كأن أمه أرضعتك.

فلا تكن هذا ولا هذا، بل خير الهدى هديه ﷺ بأن يقدم الإنسان الموجود ولا يتكلف المفقود، لكن بسط الوجه والحديث الطيب والترحيب أحسن من القرى أحياناً، فماذا تريد من إنسان يقدم لك الخروف، لكنه مغضب ووجهه عيوس وجبينه مقطب ولا يتحدث لك؟ إن من أدب الضيافة أن تتحدث مع ضيفك، فلما أتى وفد عامر قيس إلى النبي ﷺ بسأله كما في صحيح مسلم قال: «مَنْ أَوْفَدَ» فأخبروه فقال: «مَرْحَباً بِالْأَوْفِدِ...». وأخذ يحدثهم ﷺ حتى يأنسوا.

ويستنبط بعض المفسرين من قصة موسى ﷺ لما قال له ربه: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ [طه: ١٧]. والله هو الذي خلق موسى وخلق العصى ﷻ، يعلم

السر وأخفى، قال: المقصود من ذلك أنه من باب الإيناس. لأن موسى عليه السلام اندفع يتكلم: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨]. فإذا نزل بك الضيف تحادثه وتساله عن أخباره وعن الأمطار في بلده وعن أبنائه، وعن عشيرته، فيرتاح قلبه وينشرح صدره ويأنس معك.

وفد شاعر إلى يزيد بن حاتم الأزدي وكان مشغولاً والافهو كريم، فذهب من عنده ووصل إلى رجل اسمه يزيد بن حاتم القيسي، وهما أميران، لكن الأزدي هذا من كرماء العرب والقيسي من بخلاء العرب، فردّه القيسي فيقول في أبيات له:

أُرَانِي - وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ - رَاجِعاً
بِخُفْيِ حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمٍ

فسمع يزيد بن حاتم فقال: إليّ به. فأتي به، فقال: اخلع خفيك الاثنتين، فملاهما ذهباً، فقال في القصيدة يكملها؛ لأن يزيد ذاك قيسي، فقال:

أُرَانِي - وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ - رَاجِعاً
لَشَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى
فَهُمُ الْفَتَى الْأَزْدِي إِتْلَافُ مَالِهِ
وَهُمُ الْفَتَى الْقَيْسِيُّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ
وَلَكِنِّي فَضَلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

وقصة المثل أن رجلاً مغفلاً من العرب، ذهب بناقته، وفي الطريق رآه حنين الذي كان مستتراً، فقال حنين: سوف أخدعه. فوضع إحدى خفيه في الطريق، فرأها الرجل الأعرابي، فقال: لو كان معها أخرى لأخذتها، فتركها، فلما مشى قليلاً وجد الخف الثانية، فقال: هذه وهذه. فنزل وربط الناقاة وأخذ الخف ومشى؛ ليأخذ الثانية، فأخذ حنين ناقته، فرجع بخفي حنين، فصار مثلاً.

وجملة (وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ) احترازية، مثل: ﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٢٢].

فقوله: (تخرج بيضاء) فهي قد تخرج بيضاء، لكن من بهق أو برص لكن قال: (من غير سوء)؛ أي: ليس فيها بلاء ولا برص ولا مرض. فهذا هو الذي دل عليه؛ لأن البخل مذموم، وعلى الإنسان أن يقرأ سير الأجداد والصالحين الذين بذلوا أموالهم وأعطوا كحاتم الطائي، وهذا في الجاهلية، أما سيد الأجداد في الجاهلية وفي الإسلام وما قبل وما بعد والأحمر والأصفر والأسود، فهو سيد الخلق ﷺ فهو أجود الناس ﷺ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا إِلَّا أُعْطِيَ.



oboeikendi.com

الفراقبات

يقول أبو الطيب المتنبّي:

حُشَّاشَةٌ نَفْسٍ وَدَعْتُ يَوْمَ وَدَعُوا
فَلَمْ أَدْرِ أَيُّ الظَّاعِنِينَ أَشِيْعُ

معنى البيت: يقول: بقيت بقية من نفسي،
الحشاشة: البقية، فقبل الفراق ما كان عندي
إلا بقية من نفسي، وودعت هذه البقية يوم ودع
أصحابي وارتحلوا عني، فما أدري أي الظاعنين
المرتحلين المسافرين أشيع، ما أدري أودع
نفسي وأشيعها التي ذهبت وارتحلت يوم ارتحل

أصحابي وأحابي أم أشيع أصحابي؟ فأصبحت في أمر مريح وأصبحت مرتبكاً،
أودع النفس التي خرجت من بين جنبي يوم خرج أحابي أم أودع أحابي؟ وهذا
من بلاغته، وهذا البيت يعدُّ من أجمل الأبيات، وله في الفراقيات كلام عجيب،
حتى يقول:

فُرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مُدْمَمٍ

عندما خرج من عند سيف الدولة إلى كافور، وهذه آخر قصيدة قالها، يقول:

لا أدم سيف الدولة، لكن ظروفًا حصلت وأتت أمور ودخل بيننا وبينه حساد
أبعدوني عنه، وإلا فالرجل لا أستطيع مفارقتة، يقول:

فُرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مُدْمَمٍ وَأَمَّ وَمَنْ يَمَّمْتُ غَيْرَ مُيَمَّمٍ

يقول: سأذهب إلى كافور ومثله لا يقصد.

وَمَا مَنَزِلُ اللَّذَاتِ عِنْدِي بِمَنَزِلِ إِذَا لَمْ أُبَجَّلْ عِنْدَهُ وَأُكْرَمِ
سَجِيَّةُ نَفْسٍ مَا تَزَالُ مَلِيحَةً عَنِ الضَّيْمِ مَرْمِيًا بِهَا كُلُّ مَخْرَمِ

ثم يقول في الفراق:

رَحَلْتُ فَكَمْ بَاكِ بِأَجْضَانِ شَادِنِ عَلَيَّ وَكَمْ بَاكِ بِأَجْضَانِ ضَيْغَمِ

يقول: بكى علي الرجال والنساء، وهذا من الوهم عنده، وهم العظمة.

وَمَا رَبَّةُ الْقِرَطِ الْمَلِيحِ مَكَانَةٌ بِأَجْزَعِ مَنْ رَبِّ الْحَسَامِ الْمُصَمِّمِ

يقول: حتى صاحبة القراط تبيكي وسيف الدولة صاحب الحسام بيكي، يقول:

قلاني سيف الدولة. أطاع في الحساد. رماني وأنا أريد أن أرميه وأعيد الرمية له

فأنتقم منه، لكن ماذا أفعل؟ فعنده قوة وملك، فأنا أريد أن أرد عليه الرمي.

رَمَى وَاتَّقَى رَمِيٍّ وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هُوَى كَاسِرِ كَفْيِ وَقَوْسِي وَأَسْهَمِي

يقول: إن له هوى في قلبي، أنا أحبه وأجله، وهذا الحب يكسر قوسي ويدي وأسهمي.

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمِهِ
وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ وَشَاتِهِ فَأَصْبَحَ فِي شَكٍّ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمِ

وهو يقول في الفراق:

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا أَلَا تُضَارِقُهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ

فتجده في الرحيل عاطفياً دائماً، وتجده يذوب رقةً خلاف قصائده الحماسية القوية في الهمة والشجاعة، وهذا شأن العبقرية، فإنها تدرج مع صاحبها مثل الزئبق في الإناء، والله سبحانه هو الذي يعطي المواهب جل في علاه، فتجده في الفرافيات يكاد ينخلع قلبك وأنت تقرأ هذه الفرافيات، وقد أبدع العرب أبدع ما أبدعوا في الفرافيات، حتى يقول ابن زيدون في قصيدته الأخاذة التي يقول ابن كثير: ما قرأها رجل إلا هيجته على البكاء.

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طَيْبِ نُقْيَانَا تَجَافِينَا
بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَدَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا
تَكَادُ حِينَ تَنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا

وله قصيدة أخرى يقول فيها:

وَدَعِ الصَّبْرَ مُحِبًّا وَدَعِكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَا أَخَا الْبَسْرِ سِنَاءٌ وَسِنَا رَحِمَ اللَّهُ زَمَاناً أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطَّلُ لَيْلُكَ بَعْدِي فَلَقَدْ كَدْتُ أَشْكُو وَقَصَرَ اللَّيْلُ مَعَكَ

وكان المحبون يشكون من قصر الليل مع أحبائهم، ومن طول الليل إذا

فقدوهم، حتى يقول خالد بن يزيد بن معاوية:

لا أسأل الله تغييراً لما فعلت
نامت وقد أسهرت عيني عيناها
فالليل أطول شيء حين أفتقدها
والليل أقصر شيء حين ألقاها

وهذا من أجمل القصائد.

وأحدهم صاغ جناساً في هذا الباب، فقال:

ليلى وليلى نوى نوى اختلافهما
في الطول والطول طوبان أو اعتدلاً
يجود بالطول ليلى كلما بخلت
بالطول ليلى وإن جادت به بخلاً

وهذا الجناس لا يستطيعه إلا عابرة من الشعراء، فيجمعون بين هذا الكلام وإن كان فيه تكلف، فالمتنبى سبقهم في بعض المعاني، لكن كل العرب أجادوا في الفراقيات، ولذلك فقصيدة ابن زريق في الفراق من أحسن ما قيل، والتي منها يقول:

أستودع الله في بغداد لي قمراً
بالكرخ من فلك الأزهار مطلعته ودعته
ودعته وبودّي لو يودّعني
صفو الحياة وأني لا أودعه

معنى البيت: يقول: ودعت حبيبي وليت صفو الحياة ودعني أنا وفارقتي، وأني ما فارقت هذا الحبيب، وقصيدة ابن زيدون هي من أجمل القصائد وهي من عيون الشعر، وإنما قالها في الفراق لما ترك أهله وقد جاء من الأندلس إلى بغداد فجاء بهذا، حتى يقول أحد المعاصرين:

وكان صوت الفراقيات نسمعه
فلا نحس بكاء منه يبكيها
حتى أصاح لسان الدهر مرتجلاً
أضحى التناهي بديلاً من تدانينا

فضمن بيت ابن زيدون هذا.

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يودع أصحابه يقول: «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»، وكان يقول في بعض الأحاديث: «أستودعكم الله الذي

لا تضيع ودائعهم»، فهو أحسن من ودع عليه الصلاة والسلام، حتى إنه ودع عبد الله ابن رواحة فيكى عبد الله بن رواحة، وقال للرسول ﷺ وقد كان شاعراً ﷺ:

ألف السلام على امرئ ودعته في النخل خير مُودعٍ وخليلٍ

يقول: السلام والصلاة على خير خليلٍ وخير صاحبٍ وخير إمامٍ وأفضل إنسانٍ سيد الخلق ﷺ، وذهب ابن رواحة ليصب دمه في سبيل الله في مؤتة في الأردن ﷺ وأرضاه، وكان من الشهداء الكبار.

فالشاهد أنه ﷺ كان يعلم أصحابه كيف يودعهم وكيف يودعونهم عليه الصلاة والسلام.

ومرة أتاه أعرابي كما في سنن الترمذي، فقال: «يا رسول الله، إنني أريد سفراً فزودني» الأعرابي على النافة يريد السفر، يريد طعاماً.. تمرأ.. نقيماً.. زبيياً.. ورسول الله ﷺ لا يملك في ذلك الوقت شيئاً، كانت تمر على النبي ﷺ أوقات لا يجد فيها شيئاً، وأحياناً يأتيه ما أعطاه الله من المال والغنائم فيعطي، قال: فعاله ﷺ على أحسن من ذلك، قال: فزودني، فقال ﷺ: «زودك الله التقوى» فاستلمح الأعرابي واستمذّب هذا الكلام، قال: «زدني، قال: وغضرتك، قال: زدني، قال: ويسر لك الخير حيثما كنت» فصارت أحسن من الدنيا وما فيها.

وفي الترمذي أن عمر ﷺ أراد أن يعتمر، فاستأذن النبي ﷺ فقال له ﷺ: «لا تنسنا من دعائك يا أخي» سيد الخلق ﷺ صاحب المقام المحمود يقول لعمر وهو حسنة من حسنات الرسول ﷺ: «لا تنسنا من دعائك يا أخي» قال عمر وهو يتذكرها بعد وفاته ﷺ ويكي، يتذكر هذه الكلمة: محمد ﷺ يقول لك: يا أخي، فقال عمر: «قال كلمة ما أريد أن لي بها الدنيا وما فيها»، يقول: والله لا أريد بهذه الكلمة الدنيا كلها، فمن قالها أشرف وأطهر وأحسن وأحلى فم وأصدق فم، نطق بها سيد الخلق ﷺ، يقول لعمر: يا أخي، فهو يتذكر ويكي.

فكان المتنبي مبدعاً في هذا الباب، فيأتيك بمعانٍ لا تدري من أين أتى بها، ثم إنه يجدد ولا يكرر ما قال، يجدد في المطالع ويجدد في الطرح ويجدد في أغراض القصيد، وأحياناً يجعل في القصيدة ثلاثين غرضاً، فهو لا يتقيد بالوحدة الموضوعية، كما يفعل بعض الشعراء، إنما يسهب ذات اليمين وذات الشمال، فيبدع في كل باب، حتى إنك لو أخذت بيتاً من أبياته لكان علماً بارزاً وصار مشهداً مؤثراً ولوحة هائلة في الحسن وحدها، ولذلك فالأبيات السائرة في الناس هي أبيات أبي الطيب هذا الشاعر الأسطورة.

والإفقد سبق كثير من الشعراء المتنبي، لكن منهم من أجاد في الفراقيات ومنهم من سار عادياً. وجريير من أحسن ما قاله في الفراق وفي الشباب وفي الرثاء قوله:

يا أم ناجية السلام عليكم قبل الرحيل وقبل لوم العُدلِ
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم قبل الرحيل فعلت ما لم أفعلِ

قالوا: ماذا تفعل؟ قال: أقتل نفسي. هذا من كلام الشعراء، والإفدن يقتل نفسه ولن يجرح نفسه، لكنه كذب.

فأبياته مؤثرة في الفراقيات، حتى إنه يقول -وأريدك أن تقف لحظة مع هذا البيت وجمالياته وهو يسيل رقة وعذوبة وفصاحة وأثراً وجاذبية وسحراً حلالاً-:

ذم المنازل بعد منزلة اللواء والعيش بعد أولئك الأيامِ

يقول: عشنا مع أناس من الأحباب في ديارهم وفي خيامهم، يقول: كلما أنزل بعدها دياراً أذمها، لا ترحب بتلك الأيام بغير منازلهم. فلم يعد للعيش طعم بعد أولئك الملأ الذين عشنا معهم، حتى يقول ليبد في أصحاب رفاقوه وأناس نزل فيهم: ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرِبِ

يقول: كنت صاحبت أناساً عشنا في أكنافهم وفي كرمهم وفي سعة خواطرهم وعذوبة أخلاقهم، ثم تخلفت في ناس مثل جلد الأجر، إن أخطأت أمسكوا الخطأ وإن أحسنت دفنوه، فهم مثل جلد الأجر مبعثر مشقق، وهذا كلُّ يشتكي من زمانه.

قالت عائشة مستشهدة بهذا البيت كما في الصحيح: «يقول لييد»:

ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خلفِ كجلدِ الأجرِ

كيف لورأى زماننا لييد؟» فأتى عروة ونقل عن عائشة قال: كيف لورأت عائشة زماننا؟ فأتى هشام بن عروة فقال: كيف لورأى عروة زماننا؟ فأتى الزهري راوي البيت فقال: كيف لورأى هشام زماننا؟ إلى أن نقله عشرة رواة. وأقول أنا: كيف لورأوا زماننا؟

فكما قال القائل: «كلما أتى زمان كان الذي قبله أحسن منه، حتى تلقوا ربكم» قاله أنس عن سيد الخلق ﷺ، وكما جاء في الحديث الآخر: «خيرُ القرونِ قرني ثم الذينَ يلونهم ثم الذينَ يلونهم» حديث صحيح.

لكن أحياناً يأتي أفراد في القرن المتأخر أحسن من بعض الأفراد في القرن المتقدم، لكن في جملة الناس القرن المتقدم أكثر خيرية، ففي كل عام وفي كل سنة يرذل الناس وتضعف مواهب الناس وخير الناس وإمكانيات الناس، حتى تلقى ربنا.

ومن أحسن ما قيل في الفراقيات قول متمم بن نويرة في أخيه مالك، يقول بعدما قتل أخوه مالك:

وكنا كندمانئِ جذيمةَ برهةً من الدهرِ حتى قيلَ لن يتصدعاً
وعشنا بخيرٍ في الحياةِ وقبلنا أصابَ المنيا رهطَ كسرى و تَبَعَا
فلمّا تضرقنا كأنني ومالكاً لطولِ اجتماعِ لم نبتُ ليلةً معاً

أقرأتم مثل هذا السحر الحلال؟

يقول متمم بن نويرة وكان له أخ اسمه مالك بن نويرة قتل، فرثاه متمم برثاء مفرج، حتى إن عمر رضي الله عنه كان إذا دخل عليه متمم قال: «ما بلغ من حزنك على أخيك يا متمم؟» قال: والله يا أمير المؤمنين، إني بكيت عليه حتى بكت عيني العوراء» وكان عنده عين مصابة، بكت وهي جافة يابسة، لكن من كثرة البكاء بكت الصحيحة، حتى أبكت أختها العوراء، كما قال الأول:

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها
عن الجهل بعد الحلم أسبلنا معا

يقول: نصحت عيني اليمنى، كأنه يقول لها: انظري إلى العين اليسرى العاقلة لا تبكي مثلك، فأنت ماذا حصل لك لا تبكي، قال: فلم أمكث حتى بكت اليسرى كأختها. مثلما يقول الأعور السلمي لما فقد ولده، بكى بكى، وكان له عين صحيحة وأخرى مريضة، فقال:

بكيْتُ بعينٍ ليسَ فيها غضاضةٌ
وعينٍ بهاريبٌ منَ الحَدَدانِ
مريضة، مصابة من الحوادث.

عذيرك يا عيني الصحيحة بالبكاء
فما لك يا عوراء والهملان

يقول: عذرنك أيتها العين الصحيحة، عندما تبكين؛ لأنك تستطيعين البكاء، ولكن ما الذي دفعك للبكاء أيتها العين المصابة العوراء؟ وهذا أيضاً من أجمل الأبيات.

وهناك السعد الشيرازي شاعر إيراني عالمي له ديوان، وذهبت إلى طهران قبل مدة؛ لأخذ هذا الديوان، وهو عندي، من أجمل الأبيات، يقول:

بكت عيني غداة البين دمعاً
وأخرى بالبكاء بخلت علينا
فعاقبتُ التي بالدمعِ ضنتُ
بأن أغمضتها يوم التقينا

يقول: إن إحدى عيني بكت يوم ودعت أصحابي، والعين الثانية لم تبك، وعندما عدنا للسلام على الأصحاب بعد سنة أغمضت العين التي لم تبك؛ لكي لا ترى؛ لأنها لم تساعدنا بالبكاء قبل.

وله مقطوعة أخرى يقول فيها:

ما مرَّ من طيفِ الهوى بمسمعي
يا معشرَ الخالانِ قولوا للمعافى:
لو سمعتُ وُزُقَ الحِمَى ناحتُ معي
لستَ تسري ما بقلبِ المُوجعِ

وبيت:

بكتُ عيني اليمنى فلما زجرتها
عن الجهلِ بعدَ الحلمِ أسبلتُ معاً

للصمة الكسيري، من قصيدة يقول فيها:

بنفسي تلك الأَرْضُ ما أطيبَ الرُبى!
وما أحسنَ المصطافِ والمُترِيعا!

فالمتنبي له في الفراقيات أبيات أخرى يقول من ضمنها:

يا مَنْ نُعيتُ على بُعدِ بمجلسه
كلُّ بما زعمَ الناعونُ مرتهنُ

فيرى أنهم كرهوه بعد الفراق، ما وفوا له، يعني: ما ذكروا عهده الجميل وصحبته؛ لأن بعض الناس إذا وقع بينك وبينه شجار أو نزاع ترك تلك الصحبة الجميلة ونسي ذلك الوفاء والأيام الخالدة، يقول: سمعتم بلاغاً أي مت، فسررتم وفرحتم، وسوف تموتون مثلما أموت، وهل في الموت شماتة؟!

أيها الشامتُ المعيرُ بالدهرِ
أأنتَ المبرأ الموقورُ

يعني: ألن تموت؟! فيقول:

يا مَنْ نُعيتُ على بُعدِ بمجلسه
ياكمُ قُتلتُ ويا كمُ متٌ عندكمُ
كلُّ بما زعمَ الناعونُ مرتهنُ
ثم انتفضتُ فزالَ القبرُ والكفنُ

وهي من قصيدته البديعة الذائعة التي يقول فيها:

بِسمِ التعلُّ لا أهلٌ ولا سكنُ
أريدُ من زمني دا أن يُبلغني
ولا نديمٌ ولا خُلٌّ ولا وطنُ
ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ

إلى أن يقول:

مِمَّا أَضْرَبَ بِأَهْلِ الْعَشِيقِ أَنَّهُمْ هُوُوا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَمَا فَطَنُوا

يقول: يعشقون الدنيا وهم في الحقيقة لم يعرفوا الدنيا، لم يعشقونها؟ فهي غدارة.. غرارة.. مكاراة.. وهي كلما رفع الإنسان علامات، فإذا علامات، وهي تصبح بحال وتمسي بحال، وفيها فراق وفيها مرض وفيها فقر، إلى أن يقول:

تَفَنَّى نَفْسُهُمْ شَوْقًا وَأَدْمَعُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهَهُ حَسَنٌ
تَحْمَلُوا حِمْلَكُمْ فِي كُلِّ نَاجِيَةٍ فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَيَّ الْيَوْمَ مُرْتَهَنٌ
سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحَشْدَةَ لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَ مَرِيرِي وَارَعَوَى الْوَسْنُ

يقول: عندما فارقتموني سهرت لياالي وبكيت عليكم، ثم نسيت شيئاً فشيئاً، حتى عاد إلي النوم وبدأت أعود كما كنت، والحمد لله.

وأكثر الناس على هذا المنوال، يفقد الوالد ولده فيقول: والله بعدك ما أذوق النوم، فيمر وقت يسير يسلو.

وتجد الشاب يموت أبوه فتجده يقول: لم أعد أرتاح في هذه الحياة بعد والدي، والدي زينة البيت، والله ليس لها طعم بعد والدي، لا أبنائي ولا حياتي، ويظل يبكي، وبعد أيام وأشهر ينسى أباه.

فلا يفرك كلام الناس، ولذلك ترى في أبيات المتنبي عمق الدلالة، ترى فيها من العبقرية أنه يصل إلى المعاني، حتى يقول الشوكاني في بعض رسائله: فلا إله إلا الله ما أدق نظره ولا إله إلا الله ما أقوى حكمه! عنده دراسة عجيبة لنفسية الإنسان؛ لأن عبقريته أوصلته إلى هذا النفوذ.

لَا تَلَقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مَكْتَرٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَ الْبَدَنِ
فَمَا يَدِيمُ سُرُورًا مَا سَرَرْتَ بِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْغَائِبَ الْحَزَنُ

يقول: لا تكثر بشيء ولا يهملك شيء، فالدنيا كلها أوهام في أوهام، إذا لم تفرج فقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، سوف نموت جميعاً، لا تفرح بما أوتيت، ولا تجزع إذا أدبرت، فالدنيا كلها زائلة، ونحن في مسرحية اسمها الحياة الدنيا، فإذا سررت فلا يدوم السرور، كم عمر السرور؟ لا تسر بزوجة.. بابن.. بنجاح.. بمال.. بثروة.. بمنصب.. ثم أيام معدودة فينقلب الحال، ولا تدوم، ولا يرد عليك الغائب الحزن، تحزن على إنسان، هل سيرد الحزن الغائب عليك، هل سمعتم أن الحزن رد ميتاً أو أعاد ثروة ذهبت، فيقول:

ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدركهُ تجرِي الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ
هذا بيت الباقعة هنا أتى به في هذه القصيدة، وإنما ذكرته؛ لأنه في قصيدته هذه اللامعة التي سطع بها نجمه مع قصائده الأخرى.

والمتنبي استخدم في قصائده طرابلس، طرابلس التي في الشام وليست التي في ليبيا، يقول المتنبي:

أَكَارُمُ حَسَدِ الْأَرْضِ السَّمَاءُ بِهِمْ وَقَصْرَتْ كُلُّ مِصْرٍ عَن طَرَابِلُسِ

يقول: إنكم في طرابلس، حتى السماء حسدت الأرض لأنكم في الأرض، وكل مدينة في العالم حسدت طرابلس؛ لأنكم أنتم في طرابلس، يعني بني عبيد الله.

يَفِدِي بَنِيكَ عَبِيدَ اللَّهِ حَاسِدِكُمْ بِجِبْهَةِ الْعَيْرِ يَفِدِي حَافِرَ الْفَرَسِ

إلى أن يقول فيها:

لَوْ كَانَ جُودُ يَدِيهِ جُودَ غَادِيَةٍ عَزَّ الْقَطَا فِي الضِّيَافِ مَوْضِعِ الْبَيْسِ

يقول: لو كانت يده مثل الغيمة في الكرم لكانت صبت ماءها حتى ما تجد القطاة وهي تمشي في الأرض مكاناً يابساً، فهذا من نقته في المعنى، وهو يرسم بريشته، يرسم لوحة هائلة بالحسن، ويلاحق معك الحرف، ثم يصور لك المشهد، ويسلمه لك جاهزاً، وما عليك إلا أن تتدبر ما يريد أن يصل إليه.

فأتى شاعر آخر فنظم على القافية فقال:

أحبابنا إن بعدتُم عن زيارتنا أذا بمضراً وأنتم في طرابلس

وسار على نفس النسق، وذكر ياقوت الحموي مدينة طرابلس، فأتى بقصيدة أبي الطيب الرائعة البديعة، وأتى بهذه القصيدة.

وإنما قلت الفراقيات؛ لأن العلماء والشعراء والعقلاء أجمعوا على أنه لا قرار في هذه الحياة وعلى أن الإنسان سوف يرتحل من هذه الدنيا.

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مِنَ الْبَلَاءِ بَلِيَّةٌ فَادْكُرْ مَصَابِكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

فما بعد موت النبي ﷺ يجزع على ميت، وما هناك مصيبة أعظم من مصيبتنا في النبي ﷺ، ولذلك كتب الله الفراق على هذه الدار: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وإنما أتى بالشعراء خاصة هذا المتنبّي؛ لأننا نهتم بأدبه موقفاً موقفاً ومشهداً مشهداً، موقفه من المديح ومن الفخر ومن الكرم وفي الحب وفي الرثاء وفي الوصف وفي ذكر الديار والمعاهد وفي الحكمة.. ونحو ذلك.

وجدناه في هذا الباب مبدعاً، حتى إنه غلب كثيراً من الشعراء في الفراقيات.

ولكن بعض النقاد والحساد يأتي ببعض الأبيات الرخيصة وينيه عليها؛ ليبين ضعف المتنبّي، يقول محمود شاكر صاحب كتاب المتنبّي: إن هذا الرخيص من أبياته أظهر عظمته في الأبيات الأخرى، مثل الحطب بجانب الجواهر والدرر، فلا بد من هذه الأبيات الضعيفة؛ لتقوم عبقريته وعظمته في أبياته.

فهذا المتنبّي مثل ذلك، وإلا فله أبيات أخذت عليه، مثل قوله:

فقلقتُ بالهم الذي قلقل الحشى قـلـاقـل عـيسـ كلـهن قـلـاقـل

فلولم يأت بهذا البيت وارتاح لكان أراحنا وأراح نفسه. ومثل هذا البيت قوله:

فحمدانُ حمدونٌ وحمدانُ راشدٌ وراشدٌ لقمانٌ ولقمانُ حارثٌ

يقول: أنت مثل أبيك، وأبوك مثل جدك، وجدك مثل أبي جدك، وجد أبي

جدك مثل جد جد جدك..!

وهذه العبقرية لا بد لها من فلتات وعثرات، فلعبقرية فلتات وتشققات، ولها كبوات، حتى إن أبا تمام وهو مبدع- لكن أبا الطيب يعلو عليه، فأبو الطيب ملك الشعراء وحامل ناصية الأدب وحامل ناصية الحكمة، لكن أبا تمام يأتي بعده- له أشياء عجيبة من الحكم، لكن لامة العلماء في التكلف أحياناً، حتى إنه سهر في خراسان ليلة من الليالي؛ ليأتينا ببيت، قالوا: ليته نام تلك الليلة وأراحنا وريح المسلمين، فمن صلاة العشاء يتقلب على فراشه؛ لكي يأتي بهذا البيت، وأتى الصباح وأذن المؤذن، فقال:

سلمى سلمت من العاهات ما سلمت سلام سلمى وما قد أورك السلم

والإفهو بيدع، ومن ذلك:

مررتُ سنين بالسعود وبالهندا فكأنها من قصرها أيام

أيام الشباب والغنى والثروة.

ثم انثنت أيام هجر بعدها فكأنها من طولها أغوام

ثم انقضت تلك السنين وأهلها فكأنهم وكانها أخلام

هذه الحياة، لخصها في ثلاثة أبيات، وهو صاحب البيت:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حبود

يقول: إذا أراد الله أن ينشر فضائلك في الناس سلط عليك حساداً يجلدونك
جلداً بالقصائد وغيرها، فتظهر عظمتك ومكانتك، يسبونك فينشرون فضائلك.

ويدلل على هذه الآيات فيقول:

كَلَّوْا اشْتِعَالِ النَّارِ فِيمَا جَاوَزَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طَيْبُ عَرَفِ الْعُودِ

فروح العود والبخور إذا لم تضعه على النار، لما كان شاع وذاع في الناس. ويقول:

وَطَوَّلُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلَقٌ لَدَيْبِاجَتِيهِ فَاغْتَرِبُ تَتَجَدُّدُ

يقول: لا تبقَ باستمرار في قريتك دون أن تسافر، سيملك الناس ويكرهك
أهلك، لا تستفيد ثروة ولا علماً ولا معرفة ولا خبرة، ولذلك من يسافر يجد العلوم
والخبرات والتجارب والثروة، وهو يدل على هذا فيقول:

أَفَمَا رَأَيْتَ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمِدٍ؟

لو كانت الشمس دائمة ليل نهار لملها الناس.. لكن إذا أظلم الليل وأمضينا
ما يقارب اثنتي عشرة ساعة طلعت علينا الشمس، فالكل يهفو إلى طلعتها؛ لأنها
تجددت علينا، فأنت جدّد من حياتك بالترحال والتنقل تطلب المعرفة والفائدة.
فهذه من فوائد الأسفار.

وقصدي في هذا الباب أن المتنبّي قد أبدع:

فلو لم يكن له إلا قوله:

فُرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مَذْمُومٍ وَأُمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مِيَمٍ

لكان أحسن وأجاد وكفى.

